

عبد الواحد هواري

حياة فيلسوف جزائري

وظيفة.. منزل.. زوجة

وظيفة..

منزل..

زوجة..

حياة فيلسوف جزائري

عبد الواحد هواري

الترقيم الدولي ISBN: 978-9931-757-32-0

الإيداع القانوني: سبتمبر، 2019

أدليس بلّزمة للنشر و الترجمة

شارع قرين بلقاسم رقم 04 – حي الإخضرار – باتنة - الجزائر.

هاتف: 05.40.18.16.31

فايسبوك: أدليس للنشر و الترجمة و التصميم.

إنستغرام: أدليس للنشر و الترجمة و التصميم.

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوكة

وظيفة..

منزل..

زوجة..

حياة فيلسوف جزائري

- عبد الواحد هواري –

أدليس بلّزمة للنشر و الترجمة

إهداء عام

إلى الذين:

- ملوا الشرح، وصارت أجوبتهم لا تتعدى: نعم.. لا.. أو "آسف" لإنهاء النقاش.

- سئموا تداول الأيام وتكرر لحظاتها كصور طبق الأصل.

- اتخذوا من الحنق سبيلا بسبب أحكام المجتمع الخرساء.

- ارتدوا رداء اللامبالاة بسب كثرة الطعنات ولعنة الخيبات.

- فارقتهم ملامح الدهشة رغم غرابة الحياة.

- إلى السعداء الذين يجهلون سبب سعادتهم، والأشقياء الذين لا يدركون مصدر شقائهم.

- إلى القائلين "تبا" أو "اللعنة" قبل كل جملة حوت في عباراتها كلمتي "العادات والتقاليد".

- إلى الشجعان الذين ما عادوا يأبهون لعبارة "واش يقولوا علينا الناس".

إليكم جميعا أهدي كتابي هذا.

إهداء خاص

كتبت هذه الرواية في وقت كنت فيه كسائر الجزائريين بحاجة إلى شيء من الفرح، لكن شاء الله أن يمنحنا فريقا وطنيا لكرة القدم ملأ قلوبنا سعادة، لذلك أهدي هذه الرواية للاعبين والمدرب وأي شخص ساهم في تطوير المنتخب الذي نشر البسمة على ملامحنا.

عبد الواحد هواري.

نصائح قبل القراءة

1- هذه رواية ثائرة قبل كل شيء، قد تكون سببا في نشر الوعي أو تزيد من نسبة ضغط الدم، تُقرأ على انفراد من أجل استيعابها جيدا، وينصح بقراءتها قبل النوم كي لا تفسد عليك بداية يومك، وفي الغالب تكون أكثر فائدة حين يكون مزاج القارئ أقرب إلى الغضب، كما أنها تعتبر هدية جميلة يهديها شاب ما لفتاة يرغب بالزواج منها، (أنا غير مسؤول عن ظنون حبيبتك إن هي أوّلت هديتك بأنك تريد الزواج منها، فأحسن الاختيار ولا تدخلني في معمعتك) فالأمور التي تقف في طريق تحقيق حلمه ستكون مسطرة في كلماتها، ووجب قراءتها بصوت مرتفع على مسامع أوليائكم علهم يدركوا نكبتكم بطريقة غير مباشرة، كما يمكن أن تحرقوها عن بكرة أبيها إن لم تتلاعب بمشاعركم.

2- هذه الرواية ليست إلا آثارا جانبية عن جرعة زائدة من الحنق، حنق عارم يدك القلب دكا، سببه: العادات والتقاليد المرهقة، أقوال الناس الخرساء، أشباح المنغصات المحلقة من كل صوب باتجاهنا، "المعريفة" والمحسوبية، النفاق، السخرية من أحلامنا، الرضى بمعيشة ضنكا دون السعي لتغييرها....

مقدمة

أواخر أيام نوفمبر 2018 -فرنسا- المظاهرات الشعبية.

خرج حشد كبير من المتظاهرين يبغون إطلاق العنان لصرخاتهم تنديدا بغلاء المعيشة كما يزعمون، مطلقين من أفواههم عبارات تضج بحنق الرافضين للإجراءات الجديدة التي أقرها رئيس البلاد، من غير كل الناس جذبتني امرأة كغيرها من المطالبات بحقهن، صارت اللعنات تتطاير من فمها، مشتكية من الأوضاع المزرية التي طالتها، مطلقة شتائم نابعة من جوف فؤادها الذي صار هشا بسبب ضيق عيشها، قائلة:

- كيف أعيش حياتي وليست لي قدرة على تحمل تكاليف شجرة الميلاد.. لم أعد أتردد على صالات الرياضة.. ليس باستطاعة أبنائي تحمل تكاليف السفر كل أسبوع والتفريغ عن أنفسهم..

زادت من حدة كلماتها وصار الزبد يخرج من فمها، فانهالت على أفراد الحكومة، وخاصة رئيس الدولة بالإهانات.

- أنتم تشترون ملابسكم من ماركة غوتشي فيبقى لنا ما هو أدنى من ذلك...

اقتباس

".. فالحق ليس هدية تعطى ولا غنيمة تغتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، والشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي.."

مالك بن نبي (1905-1973)، كتاب: شروط النهضة.

"الذئاب ذوات القدمين هي الناس الذين يعتبرون الآخرين فرائس، الذين يسعون باستمرار إلى الإخضاع والحد والمعاقبة والإذلال".

أمين معلوف 1949، رواية: حدائق النور.

1

اسمي سعيد.. فهل أنا كذلك؟

لو طرحت هذا السؤال على تلامذتي في الثانوية لرددوا علي كما اعتادوا أن يفعلوا: "تفلسف حمار فمات جوعا"، رغم أننا لم نسمع قط أن حمارا ما في هذا الكون الشاسع مات بسبب الجوع، عكس البشر فهم عرضة لذلك.

حياتي عبارة عن سؤال معقد، لطالما تساءلت عن السبب الذي يجعل الرجل فيلسوفا، حتى قرأت ذات يوم **"أن الميزة الوحيدة المطلوبة، لكي يصبح الإنسان فيلسوفا هي أن يستغرب.."**[1]، حين ذلك ظننت أني متيقن من مسار مستقبلي، فمنذ ولادتي واستغرابي يزيد يوما بعد يوم، عكس عامة البشر، فإن استغرابهم يقل كلما زاد بهم العمر.

يوم عيد ميلادي الخامس والأربعين، بلغة الأرقام المتداولة بين البشر هو كذلك، بالتقويم الجزائري الحالي تقسم حياتي إلى ثلاثة مراحل، ستة عشر سنة من الأمل وفيها انفجر نبع الأحلام فتطايرت شرارة السعادة من قلبي، تبعها عقد من الزمن طَرحتُ فيه سؤالا مهما: كيف أظل على قيد الحياة؟ عقد مظلم أجمل ذكرياتي فيه خاتمته، ثم الجزء الثالث من حياتي الذي لا زال متواصلا إلى غاية 2019،

---

[1]- عبارة مقتبسة من رواية عالم صوفي للكاتب: جوستاين غاردر.

والله وحده يعلم كم سيدوم بعدها، وأكبر سؤال راودني خلال هذه المرحلة هو: هل أنا إنسان؟

التفكير المتواصل في عدد الأرقام المختطفة من عداد حياتي يُحتم علي عرض بحث مفصل حول الأعوام الماضية، أين ذهبت؟ فيما أنفقت؟ وما السبيل لتفادي الندم الذي يركبني جراء هلعي من سرعة الأيام؟ كل يوم ينقضي تتقلص فيه المسافة التي تبعدني عن الحفرة المظلمة، سواء كان ذلك حافزا لبذل المزيد أو نقطة سوداء تمحي أثر الأمل في غد أفضل فلن يغير ذلك من واقعي شيئا، على الأقل ليس في اللحظة الراهنة.

السنوات التي قضيتها في الجامعة حين كنت طالبا في شعبة الفلسفة علمتني فهما معينا عن الحياة، غير أنهم لم يطلعوني على فكرة أن حياة الجزائري أكثر تعقيدا من حيوات الأجناس الأخرى.

قيل أن سكان "كوينسبرغ" اعتادوا على ضبط ساعاتهم فور رؤية إيمانويل كانط[2] (ذلك الفيلسوف الألماني المهووس بالدقة) خارجا لنزهته اليومية مرتديا معطفه الرمادي، دقة مثل هذه تبدو لنا بمثابة هوس شديد، خاصة نحن الذين انتهكنا عذرية الوقت، غير أن هذا العبقري لخص فلسفته في ثلاثة أسئلة فأدرك السبيل الذي

---

[2]- **إيمانويل كانط**: (1724-1804)، فيلسوف ألماني عاش حياته كلها في مدينة كونيغسبرغ في مملكة بروسيا، آخر فلاسفة عصر التنوير، وأبرز مؤلفاته، كتاب: نقد العقل المجرد الذي نشره سنة 1781.

يحقق له ميزة الخلود في التاريخ فتساءل: ما الذي أستطيع أن أعرفه؟ ما الذي يجب عليَّ أن أفعله؟ ما الذي يمكنني أن آمله؟

كذلك سار الوجوديون[3] انطلاقا من التساؤلات الملحة في البحث عن معنى الحياة، من أنا؟ من أين أتيت؟ وإلى أين سأذهب؟

من حسن حظي أن الدين الذي ورثته عن أجدادي صرف عني النظر صوب الأسئلة الأخيرة، لكن ما يشغل بالي أكثر هو ضرورة خلق التساؤلات التي ترسم السبيل المناسب لمسار حياتي، بصفتي جزائريا قبل كل شيء، وهذا التيه هو الذي يؤرقني إلى حد الآن.

قرأت ذات يوم أن ابن رشد[4] ذلك الفيلسوف المبدع قال أنه لم ينقطع عن المطالعة سوى يومين من حياته، يوم زفافه ويوم وفاة والده، وعلى نفس المنوال الذي يصيب المرء بنزلة برد جراء التشاؤم

---

[3]- **الوجودية:** دراسة فلسفية جعلت من الإنسان موضوعا لها من حيث التفكير والفعل والشعور، ويرتكز التفكير الوجودي على مفهوم الحرية، أبرز فلاسفتها: سورين كيركغار، فيودور دوستويفسكي، جان بول سارتر، فريدريك نيتشه.

[4]- **أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد:** (520هـ، 1126م- 595هـ، 1198م) يسميه الأوروبيون Averroes: من الأندلس وواحد من أبرز فلاسفة الحضارة الإسلامية، أبرز كتبه: "كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال".

الذي يحز في صدري أحيانا، قيل أن روجيه غارودي[5] كان يقرأ كتابا كل يوم، ابن سينا[6] درس الطب والفلسفة والمنطق وعلوم الحديث وحفظ القرآن قبل الثامنة عشر، كما قيل أن أبي حامد الغزالي[7] كتب بمقدار ما يعادل كتابا كل شهر من سنوات حياته، في حين احتل الإسكندر الأكبر[8] جل مناطق العالم قبل بلوغه الثالثة والثلاثين.. هذا في الوقت الذي أتقاسم فيه غرفة ضيقة رفقة أخي ذو الخمسة والعشرين سنة وسط سكن ضيق في الطابق الثالث من عمارة حقيرة.

---

[5]- **روجيه غارودي:** (1913- 2012): مفكر وكاتب فرنسي، اعتنق الإسلام سنة 1982، وله قصة إسلام مؤثرة أبطالها جزائريون.

[6]- **هو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا:** (380هـ، 980م-427،1037 م)، واحد من أبرز فلاسفة الحضارة الإسلامية اشتهر بالفلسفة والطب، من أبرز مؤلفاته: "الشفاء"، "الإشارات والتنبيهات" كما أنه أول من كتب رسالة حي بن يقظان.

[7]- **أبو حامد محمد الغزّالي**: (450هـ، 1058م-505هـ، 1111م)، أحد أشهر علماء المسلمين، الملقب بحجة الإسلام، أبرز مؤلفاته: "إحياء علوم الدين"، "تهافت الفلاسفة".

[8]- الإسكندر الأكبر: يسمى أيضا الإسكندر المقدوني، ولد سنة 356 ق.م وتوفي سنة 323 ق.م، من أشهر القادة العسكريين في التاريخ، وأحد تلاميذ الفيلسوف اليوناني أرسطو.

2

يضم البيت الذي أقطن فيه ستة أفراد مختلفين عن بعضهم البعض كل الاختلاف، أمي سعدية التي بلغت من العمر خمسة وستين سنة أقعدها المرض فوق كرسي متحرك، غير أن داءها لم يتمكن من الانقضاض على طيبة قلبها، امرأة لا تجيد فن المكر وترى الخير في أفئدة الآخرين حتى في انعدامه، لم يمنعها عجزها من الاعتناء بالبيت وتنظيم شؤوننا، لذلك ظلت كلماتها مسموعة في أرجاء البيت لأنها مباركة بنعمة إلهية خالية من مدنسات النفاق البشري، ببساطة كانت المرأة التي نلجأ إليها في كل مأزق يتربص بنا، كطوق نجاة في بحر هائج تصفع الرياح الشديدة أمواجه.

أما والدي فتحي والذي قارب السبعين السنة، فعكس عدد السنين التي اقتطفت من حديقة حياته لا زال وجهه مشعا بنور الشباب، ملامحه تعبر عن شاب في قمة قوته، ولحيته الخفيفة الخالية من شعيرات الشيب زادته وسامة، أبي الرجل الذي وجهني طيلة حياتي يشبه أولئك الأشداء الذين أبوا أن يضعفوا أمام بطش الأيام، جُبل على إدمان الكتب ومطالعتها وخوض غمار الفلسفة والفكر، ذلك ما ألهمني حتى ولجت هذا العالم متتبعا خطواته في صبر وأناة، لم يكن صارما في شيء آخر غير صرامته الشديدة التي واجهني بها كي لا أفارق الكتب، احتقر المدارس والمؤسسات التعليمية وبدت له مواقع مسيسة فارغة من المحتوى، لطالما ردد على مسامع أمي أن السكان

في منطقتنا يرسلون أبناءهم إلى المدارس كي يرتاحوا من شغبهم فقط، لا أحد منهم يدرك المناهج المتبعة في حشو المعلومات المختلفة، صادقة كانت أم كاذبة، ولم تكن معاملته لباقي أفراد أسرتي بنفس الطريقة، اعتمد على مشروع تربوي بغية إبراز مكامن إبداع أبنائه، وحين رأى في شخصي ما لم يره في أخي وأختاي رفع من شدة معاملته إياي، في الماضي احتقرت أسلوبه معي، خاصة حين كنت أتنعم براحة العطلة الخريفية والربيعية فأرى أصدقائي هائمين في الشوارع فرحين مغتبطين باللعب والمشاكسات، في الوقت الذي كان يحبسني في غرفة ضيقة ويأمرني بمطالعة عدد معين من الصفحات يوميا قبل سماحه لي بالخروج.

أختي هند التي تبعتني في سلم ترتيب العائلة، فتاة غاية في الجمال والحسن ببشرتها السمراء وأعينها البنية كبيرة الحجم وشعرها الأسود الحريري الذي وصل بطوله إلى ركبتيها، في الخامسة والثلاثين من عمرها غير أنها لا زالت تقطن معنا في مسكن واحد، أبت الزواج ورفضت كل المتقدمين لخطبتها ليس لشيء سوى أنها لم تجد في أشخاصهم ما يروق لها، هذا ما كنا نمني به أنفسنا ونحذف بواسطته التعجب الذي طالنا من رفضها المستمر، أما في الحقيقة فلا نعرف إلى وقتنا هذا سبب امتناعها نظرا لصمتها الذي يشابه سكون المقابر، فذات يوم قمت بحساب عدد الكلمات التي قالتها مدة يومين كاملين فلم تتجاوز العشرة، في بداية تغيرها النفسي المحير ألححنا عليها بالأسئلة بغية معرفة السبب وراء انقلابها الكلي

وتحولها في منهج حياتها، لكن يوما بعد يوم اقتنعنا بالقوقعة التي اتخذت منها ملجأ يقيها التساؤلات المتكررة واكتفينا باحترام رغباتها دون أي مناقشة، في قاموس الأسرة اعتبرتها أمي مسحورة وكثيرا ما عرضتها على مختلف الرقاة كي يخرجوا ما يسكنها، لم أكن لأصدق شيئا من ذلك ولا زلت أعتبرها حالة نفسية عصية عن الفهم، أي شيء إلا ما يسمى بتقمص الجن لجسد الإنسان، لأني لو كنت جنيا فلن أكون بذلك الغباء الذي يجعلني أسجن في جسم بشر لعين، كذلك كان والدي على نفس اعتقادي غير أن احترامنا لرغبة والدتي جعلنا نرضخ لأوامرها ونيتها الطيبة في إبراء ابنتها الصامتة، شاورنا عدة أشخاص وأحضرنا رقاة متنوعين، استعملوا جل الأساليب لكنها لم تحرك ساكنا، لم تتفوه بأدنى كلمة واكتفت بسكونها العجيب، "أظن أن جنيا أبكما تقمص جسدها"، هذا ما قاله أبي ذات يوم ساخرا بعد انتهاء الراقي من عمله وإعلانه عن عجزه أمام قوة ذلك الجني اليهودي الخطير كما سماه، وبعيدا عن صمتها الرهيب كانت فتاة متدينة إلى حد كبير، كثيرة الصيام حافظة لكتاب الله مستقيمة الأثر والطريق في صلاتها وقيامها ليلا.

تخلفها أختي الصغرى رباب، لم تكن بجمال هند لكنها وسط بين الحسن والقبح، يظهر جمالها في تناسق طولها مع حجم جسدها، غير أن عدم انتظام أسنانها الأمامية جعل من ابتسامتها بشعة وطغى حجم شفتيها على مساحة وجهها، في التاسعة والعشرين من عمرها، مطلقة بعد أن دام زواجها أربعة أشهر فقط، قصة حب ملحمية مع

أحد الحمقى دامت لأكثر من أربعة سنوات متخفية عن الأنظار محتفظة بسرها في جعبتها، فارسها كما اعتادت أن تسميه خلال المدة القصيرة التي قضتها برفقته تحت قدسية الزواج لم يطلعها على تجارته السرية من حين لآخر، ليسقط في مصيدة الجمارك بعد أن ضُبط متلبسا بتهريب المخدرات، حكم عليه بعشرين سنة، أيامها بعد عودتها إلى بيتنا لم تعرف الكثير من التغير، غلبتها مشاعر الخجل أكثر من حزنها على سجينها، وظلت حبيسة غرفتها لأشهر عديدة بعد محنتها، غير أن والدتي استطاعت أن تخرجها من أزمتها، في الواقع هي الوحيدة التي حاولت مساعدتها، في الوقت الذي اكتفى بقيتنا بترك الأمور تجري كما يحلو لها، أظن أن تلك المرحلة هي الأسوأ في حياتي، وهي النقطة التي لم أجد فيها تنظيما معينا لمسار الأمور القريبة مني، أحس أحيانا أني وسط متاهة عصية عن الفهم، لذلك اكتفيت بهمي ولم أرغب بتحمل المزيد من الأثقال خاصة أني آمنت بأن الإنسان سيد مصيره، أختي التي لم تشاورني في اختيار فارسها ستكتشف الطريق الذي يناسبها حين تجد نفسها وحيدة لا الفارس واقف ولا جواده يجري.

أما آخر العنقود في الأسرة وهو الذي قال عنه أبي ذات يوم أنه غلطة بريئة فوق فراش النوم، أخي أمين الذي يصغرني بعشرين سنة كاملة، الفرق بين تفكيرنا شاسع شسوع السماوات السبع، الشاب المدلل الذي فشل في دراسته خلال المرحلة الثانوية، يكتفي بقضاء أيامه في العبث واللهو، فتيات، علاقات غرامية، سهرات

ليلية من حين لآخر، قطيعة مع الفكر والمعرفة، بطالة وأحلام تافهة، منذ انسحابه من مقاعد الدراسة وأنا أتوسط له معارفي كي يجيد حرفة ما، حلاق، لحام، نجار... وغير ذلك الكثير إلا أن النتيجة واحدة، يهرب بعد أسبوع من بداية عمله، فيكتفي بالنوم نهارا والتجول مع أصدقائه ليلا، أبي الذي لم يعد يطيق تصرفاته سلمني شعلة الاعتناء به ورعايته، رغم أني لم أطلب ذلك لكن بدا لي من خلال ملامح وجهه حين ردد على مسامعي رغبته في التبرؤ من أفعاله أن لا خيار أمامي سوى الخضوع لأوامره، ورغم كل هذا لا يسعني إنكار أني أحبه كثيرا لأنه يحمل قلبا طيبا، كان أقربنا شبها لأمي إذا ما تعلق الأمر بما يختلج الوجدان من رأفة وطيبة، وربما يكون سر حبي له أنه يملك الشيء الذي صرت أفتقده كثيرا وهو القدرة على مواصلة الاهتمام.

عائلة على اختلافها إلا أن بيتنا بني على الاستقلال الفردي كأن فيه ستة أمم مختلفة عن بعضها البعض، لم يكن أحد ليتدخل في الآخر اللهم إلا في اللحظات الذي يتحتم فيها التصادم، ورغم دفئ البيت الضيق إلا أن الفراغ ظل يسحق مهجتي كأني أعيش وحيدا في هذا العالم البائس، وأكثر شيء ظل يثقل كاهلي هو المسؤولية المزعومة التي فُرضت علي، ذنبي الوحيد أني كبير الأسرة والأمل الذي تنعقد عليه أحلامهم.

3

وظيفتي التي عانيت كثيرا من أجل تحصيلها خلال أعوام طويلة جعلت مني أستاذ فلسفة لطور الثانوية، يشهد لي الكثير من الزملاء بالتفوق الكبير في طريقة إيصال الفكرة وتحبيب المادة للتلاميذ، وهذا ما زادني اجتهادا نظرا لتعلقي الشديد بالفكر والفلاسفة.

لم يكن لي داخل أسوار المدرسة أصدقاء بالمعنى الصحيح للكلمة، اعتبرتهم زملاء عمل تنقطع علاقتي بهم ما إن أخرج من ذلك المكان، الأمر غير ذلك خارجا، جل أصدقائي من أصحاب الحرف، الفلاسفة يعيشون أفكارهم ولا يقتصرون على المؤسسات التعليمية، بل العكس تماما، لا بد أن تكون الفلسفة طريقة عيش وهذا ما آمنت به وطبقته في حياتي أو سعيت لتطبيقه، بين أصحابي المفضلين الذين يعدون على الأصابع عُرفت باسم سعيد "لمسرفس"، لقب أطلقه علي أحدهم اختصارا للكلمة الفرنسية "multiservice"، ذلك أني أجيد عدة أشياء ونادرا ما أعتمد على غيري، كلما أردت أن أستعين بشخص ما تابعته بعيني وحفظت عن ظهر قلب الطريقة التي يعينني بها كي لا أعود لطلبه ثانية، طبقت الحكمة الصينية القائلة: "لا تعطني سمكة علمني كيف أصطادها"، لذلك تعجب أصدقائي حين اكتشفوا أني أخيط حاجياتي بنفسي، أصلح الأدوات الكهربائية والهواتف النقالة، أحسن فن الطبخ، أجيد التلحيم، لدي إمكانية رهيبة في النقش على اللوح، أمتلك موهبة الرسم والكتابة

السريعة على لوحة المفاتيح الخاصة بالحاسوب، إضافة إلى إتقاني الإنجليزية والألمانية والفرنسية، كل هذا ولا زال ذلك الفراغ السحيق يدك قلبي، رغبتي في المزيد تحرق فؤادي، ولن تخمد نارها إلا حين أحقق حلمي، كنت ولا زلت معتقدا في قدرتي على تحقيقه، فالحلم وإن لم يكن حقيقة فإنه ضرورة لمواصلة الحياة، لا أتخيل العيش دون أحلام كما لا أتخيل السماء دون نجوم.

4

قبل تسعة وثلاثين سنة بالضبط، جررت نفسي لأول مرة نحو مقاعد الدراسة، ملامحي غلب عليها شعاع من الأمل لو وزع على بؤساء العالم لكفاهم شر نكبتاهم، مشيت وكلي سرور ببداية حياتي الدراسية، أذكر تلك النظرات التي طالتني من أعين العمال الذين مررت بجانبهم، حال نظراتهم قال الكثير من الأمور، تملكني شعور غامر بالسعادة ممزوج بفخر ذاتي كبير، في بداية تعليمي رأيت أن مستواي فاق مستوى باقي التلاميذ، لم أعد أعرف الآن أكانت تلك حقيقة أم مجرد إحساس نرجسي خطف لب أفكاري لسنوات طوال، لكن تعلقي بالمطالعة قبل سن الرابعة وختمي حفظ كتاب الله في السادسة من عمري جعلني أكثر ثقة في نفسي.

الفضل يعود لأبي الذي كان صارما في معاملتي إذا ما تعلق الأمر بمطالعة الكتب، أظن أنه رأى نفسه في شخصي وأراد أن يحرك عجلة الزمان بتغيير مسار ماضيه عبر تنظيم حياتي المستقبلية، صحيح أني كنت أحس أحيانا بشيء من التعسف من سياسته اتجاهي، لكن سرعان ما كنت أنسى شدته حين أنهي كتابا من الكتب وأجد في درج مكتبي هدية من الهدايا.

خلال نشأتي وانكبابي على مطالعة الكتب الفلسفية، شغلني سؤال مهم، طبعا لم يره غيري بتلك الأهمية لأن الذين يعيشون من أجل رغيف خبز وكيس حليب لا يمكن أن ينجروا وراء الأسئلة المؤرقة

كتساؤلنا: "ما هو الإنسان؟"، فغير التعريفات التي بيَّن التاريخ نقصها كونه حيوانا: ناطقا، ضاحكا، عاقلا لوجود الببغاء والقردة وباقي الحيوانات، فقد سمحت لنفسي بالإجابة عن هذا التساؤل بكون الإنسان "حيوانا يعاني"، وأول المعاناة تبدأ بأول الأسئلة المرهقة التي تقع على كاهلنا وقع الحجر الصلب في البئر الناضب.

الأسئلة ترهقنا أكثر من الإجابات، خاصة إن كان السائل جاهلا لمضامين البحث في أغوار النفس وغير مدرك السبب الذي يقودنا نحو تبني الصمت مسارا لحياتنا، وأولها تلك التي تتلو الدخول المدرسي بعد سن السادسة، حين تمشي في الطريق وحيدا محملا بحقيبة في داخلها حجم أطنان من السعادة، ومع كل خطوة يتساقط مكيال منها ليوزع على الفقراء والمساكين من أبناء التعاسة والمتشائمين، ينظر إليك الكثير من الناس مطرقين رؤوسهم يتوعدونك في أنفسهم بمستقبل مجهول الأبعاد، تحت عبارة.

"لي قراو قبلك واش داروا ..!"

ربما لم يفعلوا شيئا وربما فعلوا كل شيء، هذا ما كان يظهر من خلال قسمات وجهي أثناء مقابلة ملامح الناس رغم أن سني لم يكن يخول لي بعد الدخول إلى أغوار النفس البشرية، لكن ما ذنبي إن كان حارس البوابة نائما ما سمح لي بالتسلل قبل الأوان مكتشفا زلات الذين سبقوني؟ هرمت قبل أواني، وشربت من كأس المعرفة قبل أن أبلغ أشدي، ووزعت عبارات التفاؤل في كل الأوساط حتى كاد الحبر يجف مني فكدت أنسى نفسي التعيسة.

دخلت القسم برأس مرفوع وحال ذاتي مشبع بثقة نفسية كبيرة، اتخذنا أمكنتنا حيث أجلستنا المعلمة على حسب طول قاماتنا، لم أكن طويلا ولا قصيرا لذلك احتللت المنتصف، منذ صغري جذبني شيء ما نحو الأشياء التي تحتل الوسط، منذ قال لي جدي: "لا تكن في المقدمة فتضرب ولا في المؤخرة فتضرب كذلك، قف في الوسط كي تفر من الصفعات".

ساد صمت عميق بعد الصرخة المدوية التي أطلقتها المعلمة من فمها الذي تناثر الزبد من فجوته، توعدتنا بالضرب الشديد إن نحن لم نلزم الصمت، ثم قامت تحدثنا الواحد تلوى الآخر، حينها بدأت أولى الأسئلة المؤرقة، اسمك واسم والديك ومهنتهما، يومها لم أعرف قط رغبة المعلمين من البحث في كنه المهن التي تعلقت بها أذيال أوليائنا، لكن بعد أن صرت أكثر حكمة علمت أن في الإجابة عن ذلك السؤال الكثير من الملامح المخفية تحت قناع المكر، في كثير من الأحيان كاد المعلم أن يكون رسولا، وفي بعضها كاد أن يكون سمسار معاملات تجارية.

اختلفت نبرة المعلمة التي تتقلب في قبرها الآن بعد أن ضاقت بها الدنيا وبلعت جسدها، اختلفت على حسب نوع مهنة الأولياء، فكانت تعض شفتيها امتعاضا إن قال أحدهم بما يشبه الفلاحة، لأن في ذلك فقرا لا يجلب لها مداخيل دروس مخصصة لمن استطاع إليها سبيلا، وسال ريقها إن قال أحدهم بالطب والعلاج وسط المستشفيات، يراودها في تلك اللحظة شيك خيالي مكون من عدة

أرقام تكنى بالملايين، وقد تطير عصافير أمانيها إن حدث وذكر أحدهم أن والده منفصل عن أمه، لأنها كانت امرأة وحيدة في زمن يهتز بضجيج الرجال العزاب.

خلال تلك اللحظات همس في أذني صبي كان يجلس خلفي، بصوته الخافت وكلامه المتلعثم سألني حول تسمية مهنة والده باللغة العربية الفصحى، تملكني شعور بالسلطة خلال تلك اللحظة الهينة، كانت تلك أول مرة أحس فيها بتفوقي على زملائي داخل القسم، لكنها نشوة سعيدة لم تدم سوى دقائق معدودة، حتى انطلقت معاناتي مع ما يسمى بالجنس اللطيف، سبقتني الفتاة الجالسة إلى جانبي في إجابته، وبدأت معركتي منذ تلك اللحظة مع الجنس الآخر، بابتسامتها التي حملت الكثير من السخرية والتحدي ردت عليه دون أن تلتفت إليه، حتى أني لم أعرف إلى حد الآن كيف استطاعت سماع سؤاله رغم نبرة صوته الضعيفة، أعلنت لي بتلك الخطوة عن بداية النزال، معركة الفكر والمنافسة الدراسية، وحقا كانت كذلك لتكون منافستي الوحيدة على المرتبة الأولى خلال سنوات الابتدائية كلها، وما زاد من نكبتي نحو النساء أن المعلمة خدشت كبريائي حين ناولتني ضربة شديدة بقضيب معدني، وسَجلتُ بذلك أول هزيمة في حياتي من طرف صبية نجت من العقاب الذي طالني رغم مشاركتها في الجريمة، جريمة أخلاقية في نظر المعلمة، ومع أن الألم نال مني حتى أحسست بالتهاب راحة يدي إلا أني لم أظهر أي ضعف أمام باقي التلاميذ، ومن سخرية الأمر أنها سألتني بعد الضربة عن السبب

الذي جعلني لا ألتزم الصمت كما أمرت، أما كان عليها أن تطرح هذا السؤال قبل العقاب؟

أطلعتها على السبب الذي جعلني أتحدى أوامرها القاضية بالصمت، أعدت على مسامعها ما همس به زميلي في أذني، فكان ردها بلهجة ساخرة:

- ومن نصبك عالما أيها الحمار..

أذكر ذلك المشهد كأنه لحظة آنية، لم يجرؤ أحد من زملائي على رفع رأسه بعد ذلك العقاب، إلا الفتاة التي كانت جالسة إلى جانبي، طالتني بابتسامة قاتلة، مزيج من الاستفزاز ونرجسية التحدي، أعتقد أني رأيت فيها شخصي متمثلا بضفيرتين وتنورة قصيرة، أما بالعودة إلى سؤال المعلمة والذي كان فرصة لي كي ألتحق بمنافستي، فمنذ صغري لم أكن من النوع الذي يأسر شيئا ما في نفسه، خاصة إذا كان في إجابتي شيء من السخرية والإهانة، لذلك نظرت إليها نظرة تحد ثم أجبتها بلهجة ساخرة.

- لو كان في كلامك هذا إشارة إلى غباء الحمار فأظن أن عليك تصحيح معلوماتك، لأنه ليس حيوانا غبيا ولك أن تبحثي في الكتب التي تتناول علم الحيوان، هذا من جهة.. أما من جهة أخرى فزميلي هذا (أشرت إليه بيدي) خاف من بطشك وسألني علي أنقذه من عقابك، لم يدر أن مهنة والده تسمى "لحاما"، لست عالما يا سيدتي لكني أفقه هذه الأمور، كما يمكنني أن أضيف على ذلك ترجمة الكلمة بالإنجليزية أو الفرنسية.

ما إن أنهيت كلامي حتى تلقيت صفعة حادة، تقبلتها بسعادة غامرة لأني أحسست بالتفوق عليهما، وعرفت منذ تلك اللحظة أنهما ستضربان ألف حساب قبل أن توجها لي إهانة أخرى أو نظرة استخفاف خاصة حين توجستا خيفة من ثقافتي.

يومها، صالت المعلمة وجالت بين التلاميذ بعد أن عاقبتني بالوقوف على رجل واحدة في آخر الصف لمدة نصف ساعة، وقتها لم أحس بأي ألم جراء ذلك العقاب لأني كنت أستمع لإجابات التلاميذ حول أحلامهم حين يكبرون، تملكني شعور بالخيبة من أفكارهم العقيمة المتداولة: طيار، شرطي، مهندس... كل إجاباتهم عبرت عن تفكير يقاس بالمادة والمداخيل، إلا تلك الصبية التي خطفت جل تفكيري بإجابتها، اكتشفت يومها أن الحب لا يكون فقط من النظرة الأولى، بل غالبا ما يكون من أولى الكلمات، إذ أن سحر الحروف أكثر فعالية من قوة النظرات.

وقفت بعد أن تلقت الأسئلة المعتادة، سرقتُ بعض النظرات باتجاهها فوجدت أن هيأتها ترسم صبية فقيرة لكن ملامحها متناسقة مع حجم وجهها، ورغم أن ملابسها بدت لي قديمة وحذاؤها مقبل على التمزق إلا أن نظافتها لا شك فيها، أما قسمات وجهها فكانت جميلة إلى حد كبير، رفعت رأسها ودون أي تخبط في الكلمات أجابت:

- لقبي واسمي: سليمان سلمى.

- مهنة والداي: أبي ميكانيكي، وأمي ربة بيت.

- حلمي: أن أصير فيلسوفة.

صحيح أني كنت طفلا لم يفهم بعد بطش الأيام ونفاق البشر، إلا أن إحساسا صادقا تخلل فؤادي لحظتها بأن أعوام الابتدائية ستكون ممتعة في شقين منها، عثوري على توأم روحي أول أيام دراستي، والمنافسة الشديدة التي أنتظرها منها، أما غير ذلك فقد نبع من شعوري النرجسي إحساس بسهولة التفوق على باقي التلاميذ، وسؤالي المتكرر مع نفسي: كيف لي أن أتعايش مع هؤلاء الحالمين؟ بين تفكيري وتفكيرهم مسافة ألف سنة ضوئية لأن حلمي كان ولا زال أن أصير مفكرا خالدا في التاريخ، فيلسوف يشهد له العالم بالأفكار النهضوية التي تخرج المجتمعات البائسة من نكبتها، حتى أني كنت أتخيل شكل التمثال الذي ستضعه الحكومة في ساحة من ساحات مدينة الحاجة مغنية تكريما لجهودي كي يمر بقربه سكان البلد وعلامات الامتنان تعلو ملامحهم.

بعد أن أنهت المعلمة جولتها الفضولية عادت تسألني عن مهنة الشخص الذي ثقفني قبل أواني.

- أنت.. ما مهنة والدك؟

حتى أنها لم تسألني عن اسمي! فبعد الإهانة التي تعرضت لها صارت المسألة متعلقة بسلطة والدي في هذا المجتمع، ورغم أن أفكارا كثيرة جالت في خاطري كي أبث الرعب في نفسها إلا أني اعتقدت ولا زلت أعتقد أن شبح الحقيقة أكثر رعبا من أي كذبة دسمة.

- أبي إسكافي..!

قهقهت المعلمة وعلت قسمات وجهها نظرات حادة تفيض بالغيظ والوعيد، لكني لم أتح لها فرصة أخرى لإهانتي رغم أنها درستني لخمس سنوات متتالية حتى خطفها ملك الموت، مع كل ذلك ذرفت من أجلها شيئا من الدموع.

5

ربما كان أبي أول إسكافي في العالم يصلح الأحذية ويقرأ في الآونة التي ينتظر فيها زبائنه كتابا فلسفيا معقدا، في بلادي هذا أول درس يمكن للمرء تعلمه، هو أن الشهادات لا تعني شيئا، فرب سمكري ذو إرادة صلبة أفضل بأشواط من دكتور ورث شهادته أبا عن جد، فعلى عكس نظام الدولة الديمقراطي شكليا، فنظام حيازة شهادات التعليم العالي ملكي في أغلب أحيانه، وعزائي الوحيد أن الفلاسفة لا يعترفون بالشهادات، ولا زلت أحلم إلى اليوم أن أُدَرس تلاميذي بعيدا عن أقسام المدارس، بين أحضان الطبيعة، لأن أفضل الدروس هي التي نتلقاها من الحياة.

ستة سنوات بعدها (1986)، السنة التي تفوقت فيها بامتياز ونلت شهادة التعليم الابتدائي متوفقا بفارق 0.20 على منافستي سلمى، تلك الصبية التي تعلقت بها خلال السنوات الفائتة، فكانت صديقتي المفضلة لأنها الوحيدة التي استطعت أن أجري معها حديثا في المجالات التي أحبها، إذ أن قلوبنا تميل بشدة نحو البشر الذين يتقنون نفس اللغة التي تتكلم بها أفئدتنا، وعلى غرار كل الصدف الجميلة التي لا تدوم، لم أرها منذ ذلك اليوم، وحين كان العالم غير هذا الذي أعيشه حاليا فقد تعسر علي معرفة المكان الذي آلت إليه، ويوما بعد يوم صارت نكبتي في فراقها أخف من الوطأة الأولى، إلا أن صورتها ظلت محفورة في ذاكرتي إلى يومنا هذا، كيف صارت؟

وأين هي من تحقيق حلمها؟ غير أني أقرب إلى اليقين أنها لم تحقق شيئا مما تبتغيه إلى حد الآن، فلو كان لها ذلك لتردد اسمها على مسامعي في هذا العالم الذي صار لا يخفي شيئا من أخبار فلاسفته، ولست أكذب إن قلت أن ذلك يريحني أكثر مما يحزنني، فلا أتوقع حجم الخيبة التي ستراودني إن اكتشفت يوما أنها هزمتني في المعركة الأخيرة، ففي وهلة ما في حياتنا يعز علينا تقبل الخسارات ولو من أقرب الناس إلينا، لكن من يدري لعلها سترافق سيمون دي بوفوار[9]، وحنة آرنت[10] في طريقهما الذي وضعتاه عبر سكة الفلاسفة الرجال، إذ يحلو للنساء أن يقتحمن عوالمنا لأن في طبيعتهن حب المشاركة والمساواة ولو كان في إمكانهن مطالبتنا بالإنجاب لما ترددن قط.

غير أن تمنياتي لها بالنجاح في حلمها تحتل المركز الثاني بعد تمنياتي لنفسي، لا بأس بشيء من الأنانية في مجال التنافس الفكري، فلو

---

[9]- **سيمون دي بوفوار:** (1908- 1986) فرنسية الجنسية، كاتبة ومفكرة وفيلسوفة وجودية، وناشطة سياسية، كتبت المقالات والسيرة الذاتية والروايات حول الفلسفة والقضايا الاجتماعية، كانت على علاقة بالفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، أشهر رواياتها: "المدعوة"،"المثقفون"، أمّا أشهر كتبها فهو "الجنس الآخر".

[10]- **حنة آرنت:** (1906- 1975) منظرة سياسية وباحثة ولدت بألمانيا، كانت ترفض لقب الفيلسوفة رغم أن الكثيرين قالوا أنها كذلك.

وصلت مكانة سيمون دي بوفوار فلا بد أن أكون جان بول سارتر[11]، أما إذا اختارت طريق حنة آرنت فستجدني مثل مارتن هايدغر[12] واقفا في وجهها، وفي عالم الفلسفة تغطي أسماء الرجال الساحة الفكرية.

---

[11]- **جان بول سارتر**: (1905-1980)، فيلسوف وجودي فرنسي، مؤلفاته كثيرة جدا، أهمها: الوجود والعدم (1943)، ورواية الغثيان (1938).

[12]- **مارتن هايدغر**: (1889-1976) فيلسوف ألماني اهتم كثيرا بالوجودية، كانت له علاقة عاطفية مع حنة آرنت، أبرز مؤلفاته: الوجود والزمان (1927).

6

وضع القلم جانبا بعد سماعه نداء أمه.

- تعال يا سعيد.. العشاء جاهز.

يضطرب جسده كلما سمع نداء والدته، يدرك أن تلك الجلسة العائلية أكبر من مجرد تناول الطعام، اجتماعهم في تلك اللحظة يعني كثرة الأحاديث والأقاويل، وخلف كل هذا يتذكر مسؤوليته اتجاه أسرته، "نحتاج إلى.." كلما سمع هذه الكلمات إلا واشتدت مفاصله، في حياته أشياء كثيرة لا نهاية لها، منها متطلبات أسرته، خضروات، فواكه، حاجيات خاصة بأختيه، نقود لشقيقه الخامل، فما الذي يتبقى له؟

تأفف بعد وقوفه شامخا للحظات قصيرة أمام مرآة غرفته، يقلب بصره في صورته ولا يدرك غرضه من ذلك لأن السهو سرقه فترة وجيزة لم تلبث إلا بضع ثواني ثم توجه صوب المطبخ الضيق، طاولة مستديرة يجتمع حولها ستة أشخاص، في الغالب يكون والده أول الجالسين ثم أخته هند، في الوقت الذي تظل فيه سعدية كمفتش يبحث عن خلل في طاولة العشاء، غير أن دور هند في إعداد المائدة دائما ما يسير بشكل مثالي، تتقن أعمالها أيما كانت، عكس رباب التي تتبعها الملاحظة تلوى الأخرى، تأتي هذه وفي يدها هاتف لا يكف عن الرنين تعبيرا عن وصول الرسائل الإلكترونية، وفي الأخير ينضم إليهم

أمين، فتى الأسرة المدلل الذي لا يجيد سوى انتقاد ذوق الطعام، أو قلة ما يشتهي.

جلس سعيد وقد بدا على وجهه شيء من الاكتئاب، هي الحالة التي ترافقه كلما أنهى كتابة صفحة ما، كأنه حمل ثقيل أزيح عنه فاختل بذلك توازن جسمه، وكالعادة لا يفطن أحد لأمره إلا والدته، غير أنها تكتفي بالصمت، تدري أن الكلام لن يفيد في شيء لأن ما يحدث له فوق قدرتهم جميعا، أي أم غيرها كانت لتحس بذبيب الخيبة في مهجتها إن هي نظرت إلى ابنها ذو الخامسة والأربعين وحيدا دون زوجة أو أطفال، وأي امرأة في الستينيات تحلم بلقب الجدة، أكثر ما يؤرقها أن تسرقها المنية قبل ذلك الحين، إلا أنها تضرب ألف حساب للواقع، الحياة لم تعد كما كانت في فترة شبابها، البسيط صار معقدا والسهل صار صعبا وبينهما طريق محفوف بالمنغصات.

رن هاتف رباب للمرة السادسة خلال تلك الجلسة، أفسدت نغمته نعمة السكون وأخرجتهم من لحظات تأملاتهم، لذلك قالت لها سعدية بلهجة فيها الكثير من السخط.

- ضعي ذلك الهاتف جانبا، وإلا حطمته فوق رأسك.

- لا أستطيع ذلك، صمتكم هذا يجعلني أحس أني وسط مقبرة عتيقة، على الأقل في هذا الجهاز شيء من الحياة.

كان هذا رد رباب التي ما انتهت من عباراتها حتى رفعت رأسها باتجاه أمها، لاحظت أنها ترمقها بنظرة وعيد، وأدركت كما علمتها التجربة أن لغة النظرات أكثر صرامة من الكلمات، فأذعنت لرغبتها ووضعت

هاتفها جانبا، ثم خلال نفس اللحظة اشتكى أمين من قلة الملح في الطعام، غير أنه فعل ذلك بعد أنهى طبقه، حساء "الحريرة" وطبق الدجاج المحمر مع البطاطا المقلية، فكان رد أمه.

- "شبع صالح وقال مالح"[13].

بعد هذا التصريح، علت في الجو ضحكات باقي أفراد الأسرة، كأن الجلسة افتتحت لحظتها، وصار كل واحد فيهم يدلي بدلوه في الموضوع الذي يستهويه، تكلم رب الأسرة فتحي في السياسة ولعن كعادته عديد الوزراء والولاة، عادة ما تجري بينه وبين سعيد مناقشة حادة لا تنتهي باتفاق معين، غير أن أستاذ الفلسفة اكتفى بالاستماع وانزوى إلى ركنه كما فعلت هند، وهما الوحيدان اللذان لم يتكلما إلى تلك اللحظة، يبتسمان مراعاة لمشاعر محدثيهم ثم يعودان لعبوسهما.

- أفف.. ما أسوأ هذا الهاتف، شحنته قبل ربع ساعة لكن بطاريته شارفت على النفاذ.

- الشكوى.. الشكوى.. يوجد أناس لم يتمكنوا من شراء حذاء جراء فقرهم، وأنت تشتكين من هاتفك.. احمدي الله أنه رزقك بأخ مثل سعيد لم يبخل عليك بمبلغ أربعين ألف دينار وإلا ما كنت لتحلمي بهذا الجهاز.

---

[13]- مثل شعبي يقال للشخص الذي ينتقد ذوق الطعام بعد أن ينهي الأكل.

أخذ ورد، هكذا دائما والمعركة مستمرة بين الأم وابنتها رباب، فقاطعهما أمين متكلما وفمه مملوء بقطعة لحم أخذها من طبق هند.

- أمي، أحتاج إلى حذاء رياضي جديد، سيقيم حينا دورة في كرة القدم ترحما على ابن جارنا الذي توفي السنة الماضية، لابد أن أكون مستعدا لدك الشباك بالأهداف، فولدك ماهر كما تعلمين.. ها ها ها..

- لو كانت مهارتك بقدر تبجحك لكنت لاعبا في برشلونة، لكن لسانك أمهر من قدميك.

انفجرت العائلة ضحكا، هذه المرة شملت الكل لأن المجيب كان السيد فتحي، وتقتضي القاعدة بضرورة الضحك حتى لو لم تكن العبارة على ذلك القدر من المرح.

سبب ذلك إحراجا للفتى المدلل فانحسب عابسا صوب غرفته دون أن يضيف كلمة واحدة، فزاد ذلك من نشوة أفراد العائلة، وكان سعيد منهم لأنه أدرك أن أخاه المدلل قصده مباشرة حين قال "أمي، أحتاج.."، لطالما كانت ربة الأسرة الوسيط بين المحتاجين لشيء ما وداعم الأسرة الوحيد خلال تلك الفترة، حتى السيد فتحي تقاعد من عمله وغير من سيرة حياته باعتماده الكلي على ابنه، فصار منكبا في غرفته على قراءة الكتب والجرائد ومتابعة الأخبار السياسية.

خلال تلك اللحظة ارتفع في الأفق صوت أذان العشاء، انسحب الوالد صوب المسجد، واتجهت رباب نحو حجرتها، في حين حملت

هند أطباق الطعام من أجل غسلها، فلم يبق إلا سعيد وأمه، وهي اللحظة التي يخافها، الدقيقة التي تأتي محملة بالحاجيات المطلوبة، وفي قانونه يعني ذلك مزيدا من نزيف الأموال، "يا حسرتاه على رغبتي في جمع مبالغ معتبرة"، هذا ما كان يتردد في خلده خلال تلك الدقيقة، وهذا ما فهمته والدته الفطنة، غير أن مجرى الحديث هذه المرة غير ما اعتادا عليه، فقالت وقد اغرورقت عيناها بشيء من الدموع.

- متى أراك عريسا يا بني؟ أخبرني من فضلك متى كي تقر مهجتي!

- تعرفين يا أماه أني أتحرق لذلك اليوم، لكن..

لم تستطع سعدية أن تضيف على كلامه شيئا، صدق في قوله، هي تعرف أنه يتحرق لإنشاء أسرة سعيدة، يرغب في تحقيق حلمها والأهم من ذلك يسعى للاستقرار النفسي.. كانت الحياة لتكون أجمل إن خلت من كلمة "لكن"، كلمة يتبعها الأسى والتحسر والكثير من العجز، وهي الأشياء التي تفقدنا القدرة على الاستمرار في المقاومة.

تذكرت عدد الفتيات اللواتي سعت لخطبتهن رغبة في إسعاد ابنها، وفي كل مرة تصاب بخيبة مرة، لم تكن لتقبل به واحدة منهن بسبب سكنه رفقة أسرته، ورغم أنه فكر عدة مرات في استئجار منزل متواضع، غير أن دخله المحدود وقف في وجهه، متاهة عصية تلك التي وجد فيها نفسه، بين التضحية المستمرة في سبيل أسرته على حساب سعادته، حتى جالت في رأسه فكرة استغنائه عن الزواج،

فكم من فيلسوف سار على هذا الطريق، لا بد أن المرأة كانت لتكون عائقا في طريق نيتشه[14] وشوبنهاور[15] وغيرهم الكثير، في فترة ما من حياته وجد سعيد راحة نفسية في ابتعاده عن الارتباط الأبدي، لكن والدته حطمت هذه الفكرة من جرة عقله حين توعدته بالسخط عليه في الحياة الأخرى إن هو سعى لتحقيقها، ومنذ ذلك الحين وجد نفسه في صراع نفسي كبير، غير أنه لم يستطع إنكار بصيص الأمل الذي احتفظ به وسط مهجته في الزواج بامرأة ما، فلابد للحياة من معنى رفقة الجنس اللطيف، إلا أن الكيفية والطريقة لتحقيق ذلك لا زالت مبهمة السبيل.

- لا تقلق يا بني، عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، كما أن قلبي يحمل شيئا من التفاؤل بالتوزيع السكني الجديد.

برق وميض في عيني سعيد حين سماعه كلام أمه، كان قد نسي تماما أن موعد تسليم السكنات في مدينة الحاجة مغنية قد اقترب، لم يتبق إلا أسبوع واحد على حسب تصريح والي تلمسان، بالنسبة إليه، هي الفرصة الوحيدة المتبقية له كي يصير زوجا تحت أنظار أمه

---

[14]- **فريدريش نيتشه:** (1846- 1900)، فيلسوف ألماني كان له أثر كبير في الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث، أبرز كتبه: هكذا تكلم زرادشت (1883- 1885).

[15]- **أرتور شوبنهاور:** (1788- 1860) فيلسوف ألماني معروف بفلسفته التشاؤمية حيث يعتبر الحياة شرا مطلقا، أبرز كتبه: العالم إرادة وتمثلا.

وينعم بفرحها مادامت حية ترزق، لذلك أحس بقشعريرة تسري في جسده، ثم قال.

- خيرا إن شاء الله، لم يحالفني الحظ خلال العشرين سنة الماضية، لكن حظوظي هذه المرة أكثر من أي مرة سابقة.

لم يكن تصريحه هذا من باب مسايرة أمه في آمالها، فحقا كان يمني نفسه باستحقاق مكانة في لائحة السكنات الممنوحة، فقد وضع ملفه الخاص في سنة 1995، ولا بد له في هذه المرة أن يركب قطار تحقيق الأماني، ويتفرغ بعدها لتحقيق حلمه ويكون أول فيلسوف أفنى أكثر من نصف حياته تفكيرا في كيفية تحصيل بيت وزوجة.

ابتسمت أمه، لا شيء يسعدها أكثر من كلمات التفاؤل النابعة من قلب ابنها، فتحمست للكلام وصرحت.

- عسى أن يستجيب لي ربي ويكون اسمك رفقة اسم أختك رباب في لائحة السكن، فبيتنا عتيق وضيق كما تعلم، و...

قاطعها سعيد قبل أن تنهي جملتها، هذه المرة بلهجة أكثر صرامة، وقد بدا على مسامات وجهه اكفهرار شديد.

- لم يبق إلا هذا، الرجال العاملون محرومون من السكنات، والمطلقات الجالسات في بيت أوليائهن يحصلن ما يبتغين، ألا لعنة الله على سياسة النساء، واللعنة على مجتمع فرط في المفكرين على حساب...

لم يكمل كلامه رأفة بأمه، رؤيتها جالسة فوق ذلك الكرسي الحديدي يزيد من ألمه، لطالما تخيل الحياة دون جرعات الأمل التي

تمده بها، بكلماتها الموزونة داوت الكثير من أوجاعه، لذلك اعتبر نفسه مدينا لها بما لا يمكن رده أبد الدهر، فاتجه صوبها وقبل جبينها اعتذارا على ما بدر منه، فناولته بدورها قبلة في خده الأيمن كما اعتادت أن تفعل، وقالت.

- لا تشغل بالك كثيرا يا قرة عيني، فحتى لو منحت الحكومة أختك سكنا على حسابك فأعتقد أنها ستتنازل عنه من أجلك، هذا أقل ما يمكن أن تفعله ردا لصنائعك اللامحدودة في سبيل هذه الأسرة.

زينت الابتسامة ملامح سعيد، وهمَّ بالانسحاب صوب حجرته بوجه غير الذي خرج به، وقبل ابتعاده عن والدته سمعها تردد.

- ولا تنسى يا عزيزي، نحتاج غدا لكيسين من الحليب، والخبز وشيء من الطماطم..

- حاضر يا أمي.

- سعيد!

- نعم يا أماه!

- لا تنس وضع القمامة خارجا.

احمر وجهه من جديد دون أن يضيف كلمة واحدة، وقبل أن يحمل كيس القمامة لاحظ على أحد الرفوف داخل المطبخ كتاب "تهافت التهافت" لابن رشد، فضرب بيده على رأسه تحسرا، ثم حمل الكيس الأسود وانسحب مرددا في نفسه: "ابن رشد لم يكن يشتري الحليب،

والفرابي[16] لم يخصص وقتا لرمي القمامة، المشغول بهذه الأمور لا يصير فيلسوفا، ما أتعس حظي، لكن هؤلاء عاشوا بالقرب من بلاط السلطان، ما عليهم سوى الإشارة بأيديهم، أين أنا منهم؟ تبا.. صدق ابن رشد حين قال أن التأويل يتطلب الفراغ، وجزائري مثلي مهموم بجدول مزدحم بالمشاكل عاجز عن ذلك، حياتي عبارة عن كيس حليب، وكيلوغرام من الطماطم، اللعنة عليها وعلى كل حياة تشابهها.."

---

[16] - **أبو نصر محمد الفارابي**: ولد عام (260 هـ/874 م- 339 هـ/950م)، واحد من أشهر فلاسفة الحضارة الإسلامية عرف بإتقانه للعلوم الحكمية إضافة لصناعته في الطب، أهم كتبه الفلسفية: «الجمع بين رأي الحكيمين».

7

لم تعرف حياتي بعد توجهي نحو المدرسة الأساسية ثم الثانوية تغيرا كبيرا في مسارها، وإن أمكنني أن أسميها لأسميتها مرحلة المرات الأولى، أول عقاب مدرسي، أول شجار، أول سيجارة...

غير أنها لم تتجاوز حدود المرة الأولى، وفي السنة السابعة من التعليم الأساسي تعرفت لأول مرة بصديق حياتي الذي لا زال إلى يومنا هذا نعم الصديق، مصطفى الشاب الناقم على كل شيء متعلق بالحكومة، والقابع في قوقعة الماضي لا يبغي مغادرتها، يكبرني بثلاثة سنوات ضيعها في مراحل مختلفة من تعليمه، لم أر شخصا مولعا بهواري بومدين[17] أكثر منه، حتى تكاد لا تخلو جلساتنا من الحديث عنه وعن هيبته التي أخدت بلب الشعب في تلك الفترة، لكنه مقت أشد المقت الشادلي بن جديد[18] إذ رأى فيه الرجل المعاكس لبطله القومي، ورغم حجمه الكبير إذ تجاوز وزنه التسعين كيلوغراما وبلغت قامته مائة وخمسة وثمانين سينتمترا إلا أن مهارته في كرة

---

[17] - **هواري بومدين**: واسمه الحقيقي محمد إبراهيم بوخروبة، (1932-1978)، الرئيس الثاني للجزائر المستقلة. شغل المنصب من 19 يونيو 1965، حتى وفاته في 27 ديسمبر 1978.

[18] - **الشادي بن جديد**: 1929-2012، الرئيس الرابع للجزائر المستقلة، دامت فترة رئاسته من 1979 إلى 1992.

القدم جعلته أفضل لاعب في مدرستي خلال تلك الفترة، فاختلفت مشاعر التلاميذ الآخرين اتجاهه من معجب بمهارته، ومن متهيب من حجمه الضخم وخوفا من بطشه.. كان يحلم في احتراف كرة القدم غير أن ظروفا قاهرة حطمت آماله الرياضية والمدرسية أيضا، لينسحب من الدراسة سنة 1989 ويتجه نحو حرفة النجارة، رغم ذلك لم ينقطع ما بيننا من ود ولا زالت اجتماعاتنا إلى يومنا هذا مستمرة كل نهاية أسبوع.

أما الصديق الثاني في حياتي، عرفته في السنة الدراسية الثامنة، خالد المعروف بهوسه الرهيب بنظرية المؤامرة، كل شيء في نظره يخبئ في باطنه أكثر بكثير مما في ظاهره، ولا وجود للصدفة في جل الحوادث خاصة السياسية منها، كما أنه لا يعترف بتوبة السياسيين الفاسدين ولو رأى أبواب الجنة تفتح لهم، عكس مصطفى لم يكن محبا لبومدين ولا هاويا لرياضة ما، جل ما شغله خلال فترة الدراسة كان متعلقا بالفتيات والعلاقات الغرامية، الواحدة تلوى الأخرى، إلى أن طرد سنة 1988 بسبب غياباته المتكررة، ولا زال إلى يومنا هذا يفتخر بأكبر عدد من العلاقات رغم أنه متزوج وله منها ثلاثة بنات.

غير ذلك من الأمور كانا شابين مثقفين إلى أبعد الحدود، لذلك اشتركنا في حب الكتب وتبادلها نظرا لندرتها خلال تلك الفترة، وكثيرا ما كنا نشترك في دفع ثمن كتاب ما، ونتناوب على قراءته.

كانت المرحلة المتوسطة من التعليم هي البوابة التي قادتني نحو عالم الإناث، فوقعت في حب فتاة تكبرني بسنتين اسمها نادية، غير أن مشكلة عويصة وقفت في وجهي حين اكتشفت أن خجلي يمنعني كل المنع من التكلم بجملة واحدة في وجه فتاة ما، وكان هذا سببا كافيا كي أصير محل سخرية بين صديقاي، ولا زالا إلى حد الآن يعيراني بحادثة وقعت خلال تلك الفترة، فعقدة لساني أثناء التحدث إلى الوردة التي همت بحبها عوضتها قدرتي المميزة في كتابة الرسائل، فعلى عكس التلعثم والاضطراب الجسدي، كان القلم يمنحني ثقة عالية وقدرة على كتابة كلمات رومانسية احتلت موضة ذلك العصر، وهذا ما فعلته رغبة مني في سرقة قلب محبوبتي، فكتبت ما يسرق لب خاطرها وأرسلت الرسالة عن طريق خالد، غير أن الوغد أضاف سطرا أخيرا فوجدت نفسي منفردا بنادية وعلى قسمات وجهها آية من آيات الغرام، فاقتربت مني ورغبت في تقبيلي بحجة أني كتبت ذلك في رسالتي، فما أحسست بساقي حتى وجدتني أفر فرار لا عودة بعده لمثل هذه الأماني، وتركتها وحيدة بعد أن علا صوتها بضحكات تحمل الكثير من السخرية، ولم أرتح من همزاتها ولزماتها كلما صادفتني رفقة صديقاتها إلا بعد أن فشلت في امتحان شهادة المتوسط وتم طردها من المدرسة.

أحسست مع مرور الوقت بكثرة التغيرات التي تطرأ علي، كل شيء في تغير مستمر في حياتي، الأشياء التي أحببتها صارت مألوفة ورغبت في تغييرها، فتر حبي لعدة مأكولات طالما سال ريقي عند رؤيتها، حتى

الفتاة التي أحببتها وسخرت مني حولت مشاعري اتجاهها إلى مقت خالص فلازمتني عقدة العلاقات خلال المرحلة الثانوية، شيء واحد زادت رغبتي في تحقيقه والوصول إليه هو هدفي في أن أصير فيلسوفا، خاصة بعد أن تعرفت على فولتير[19] ونيتشه، شخصيتان أساسيتان في عالم الفلسفة الغربي.. كنت أشتري كتبهم باللغة الفرنسية من أحد جيراننا الذي يقتات من رحلاته المستمرة بين الجزائر وفرنسا فيحضر كل ما يُطلب منه بمبالغ مضاعفة، لكني لم أكن آبه لغلاء ثمنها، خاصة بعد أن قرأت عن معاناة الفيلسوفين السابق ذكرهما، وتيقنت أن المجد لا يأتي بالنوم على الريش، فرافقني هذا الاعتقاد خلال فترة زمنية طويلة من حياتي.

انكبابي على قراءة الكتب الفلسفية لم يغير الكثير من مساري الدراسي، وظل مستواي سائرا على وتيرة متناسقة، فكانت شعبة العلوم الإنسانية السبيل المناسب لي من أجل تحقيق ما أبتغي، وابتدأت أولى المشاكل في مساري حين اشتدت الخلافات السياسية بين حزب الجبهة الإسلامية والنظام الحكومي، صحيح أن وعيي كان متفتحا قبل أوانه، لكن ذلك لم يكن ينطبق على الجميع، يكفي أن

---

[19]- فولتير: اسمه فرانسوا ماري آرواويه (1694- 1778م)، كاتب وفيلسوف فرنسي عاش خلال عصر التنوير، عرف بالكتابة الساخرة، وكتب أيضا في جل الأشكال الأدبية من الرواية والشعر والمسرح، له رواية رائعة قام بترجمتها طه حسين بعنوان القدر.

يراك أحدهم حاملا لكتاب فلسفة كي يشير إليك بأصابع الاتهام، لذلك ظلت مطالعتي سرا لا يعلمه أحد من الناس، ومن حسن حظي أني كنت حافظا لكتاب الله تعالى، وجعلت الكثير من الآيات حجة سلامتي وجواز سفري بين المدن، ولأن مسار الحياة لا يكون كما نبغي دائما، هاجر جارنا بعد أن اشتدت العاصفة السياسية ووقع شرخ بيني وبين الكتب الفلسفية دام قرابة السنتين، إلى غاية 1992 حين تفوقت في امتحان البكالوريا واخترت شعبة الفلسفة كتخصص جامعي، ورغم توسلات أمي بعدم مغادرة المدينة في تلك الفترة نحو جامعة وهران إلا أن قناعاتي بتحقيق هدفي فاقت كل مخاوفي.

8

كلما سنحت لي الفرصة بإعادة عجلة الذكريات إلى سنوات الجامعة تملكتني مشاعر مبهمة، أربعة أعوام لا زلت عاجزا عن وصفها ذلك الوصف الدقيق الذي يعبر عما اختلج باطني وقتها، لكني لم أنس قط أكبر كذبة في مساري الدراسي حين قال لي أستاذي قبل امتحان البكالوريا أن "هذه الشهادة هي مفتاح حياة النعيم، لقد تجاوزت أصعب جزء وما الباقي إلا كالحلويات تأتي آخر الطعام وتتوج ملكة عليه".

لا أعرف بالضبط أي نعيم قصد من كلامه، لكني شبه متأكد أنه ليس تلك الصورة الخالدة في أذهاننا.

قضيت في جامعة وهران أربع سنوات كاملة، ختمتها بالتخرج سنة 1996 وبين أول وآخر يوم حقيبة من الذكريات قابعة في قلب ذاكرتي.

إن أصعب ما في تلك الفترة هو تجنب الاختلاط مع الناس، إذ كانت النظرات المصوبة نحو طلاب الفلسفة لا تحمل الشيء الكثير من الخير، في نظر الكثيرين منهم لم أكن سوى ملحد زنديق وجب تأديبه أو لم لا.. قتله، فالأوضاع حينها كانت حالكة لا يعلوها بصيص أمل في خاتمة سعيدة، لذلك تعمدت اعتزال البشر ولم يكن لي من الأصدقاء إلا زملاء القسم، أما خارج حجرة الدرس أو بين جدران

الإقامة الجامعية فقد فرضت على نفسي عزلة شديدة، خصصت جل وقتي للمطالعة وقراءة أي شيء يقع بين يدي له عبير الفلسفة.

المحاضرات الفلسفية هي الشيء الوحيد الذي كان يخرجني من حالة الرعب التي سكنت مهجتي خوفا من غد دامس، فيها نسيت شيئا من بؤس ذلك الزمن، وكثيرا ما لاقت تدخلاتي وأسئلتي إعجاب الأساتذة غير أن المنافسة بين الطلاب لم تكن بذلك المستوى الذي يحفز على بذل المزيد، كأنهم يحضرون الدروس لمجرد قتل الوقت رغبة في نيل الشهادة.

ابتعدت خلال تلك الفترة عن عائلتي، فقد منعتني الأوضاع المحرجة للبلاد من التنقل نحو مدينتي كل أسبوع، فكنت أقضي شهرا كاملا بين جدران الإقامة ثم أسرق يوما من أيام العطلة رغبة مني في مشاركة أسرتي نعمة لم الشمل، وحقا كان كل ذلك يستحق العناء لأن الأحوال المنذرة بكل سوء لم تكن لتستأذن أحدا من الناس، واعتلى الصدق أعلى درجة من سلم المشاعر، إذ يحلو للإنسان أن يلتزم بدين صفاء القلب حين يكون مصيره رهنا بليلة وضحاها.

لم يكن أي من تلك الصراعات ليثنيني عن عزمي وتحقيق حلمي، واستعنت ببعض الأعمال الشاقة خلال عطلة الأسبوع كي أعين نفسي على مصاريف السنة الدراسية، فدخل أبي المحدود بالكاد يكفيه وأمي.. فكيف يمكنه من رعاية ثلاثة أفراد آخرين وجنين سيخرج إلى الدنيا سنة 1994؟ خلال ذلك العام تعرفت بأول فتاة دخلت حياتي عن طريق مصادفة غريبة، فمن إيجابيات سنوات

الجامعة الأولى أنها أخرجتني من قوقعة الخجل التي رافقتني خلال مراحل حياتي السابقة، الخجل المتعلق بالفتيات طبعا، وعلى العكس تماما بدأت علاقتي بكريمة طالبة التاريخ بشكل ممتاز، لتعرف حياتي بذلك منعرجا غامض المسار.

التقيت بها أول مرة داخل مكتبة الجامعة، إذ جمعنا القدر على فكرة البحث عن كتاب لجان بول سارتر، فاهتمت هي بالجانب التاريخي من فكره، خاصة دوره في دعم حركات التحرر في البلاد الجزائرية، في الوقت الذي كان بحثي يتضمن التعمق أكثر وعرض أفكار مفصلة للغاية من دفاعه ذلك، هل كان فعلا خاليا من تبعات خفية أم أنه فيلسوف أخلص لفلسفته ولو على حساب وطنه؟ وهنا اكتشفت أني وكريمة على خلاف شديد، وما أشهى العلاقات التي تبتدئ باختلاف فكري.

كنت مقتنعا أن موقفه الداعي إلى دعم حركة التحرر الجزائرية يحمي مصالح فرنسا أكثر من مصالح الجزائر رغم صعوبة إثبات ذلك، لكن جراء نقاشي الغني مع كريمة اكتفيت بأن أثبت لها أنه وقف موقفا سلبيا من القضية الفلسطينية، كل ذلك لكون حبيبته سيمون ديبوفوار يهودية الأصل، ولطالما اعتقدت أن المبادئ كثيرا ما تنحني لجلالة الحب، فصار بذلك نقدي له أشد صلابة من إعجاب حبيبتي به، فتحول شغفها بشخصية الفيلسوف الفرنسي إلى شيء من النفور.

بذلك تعرفت على كريمة، وتحول النقاش إلى اجتماعات متكررة فما لبثت حتى اكتشفت أن نفسي غارقة في الحب من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي.

لدي قدرة هائلة إلى اليوم على وصف ملامحها بدءً من حجم عينيها وتناسق حواجبها مع بشرتها السمراء إلى سحر ابتسامتها وحجم قدميها المغري حين ارتدائها حذاءً بكعب متوسط العلو، لكني لن أضيف على ذلك من الوصف شيئا، لأن ما جذبني لم يكن ذلك، بل لأنها فتاة مفعمة بالأفكار، وليس هنالك ما هو أجمل من حبيبة تتقن فن التفكير، كما أنها الشخص الوحيد الذي لم يسخر مني حين أعربت له عن حلمي في رغبتي أن أصير فيلسوفا، لطالما واجهني الآخرون بسيل من السخريات والضحكات المستفزة، إلا كريمة، فقد قالت لي بلسان الواثق من حاله: "سأكون المرأة التي قيلت فيها الحكمة: وراء كل رجل عظيم...".

حولت تلك الفتاة ما تبقى من سنوات دراستي إلى جنة من الأحلام، صارت رغبتي في تحقيق حلمي أكبر برفقتها، دعمتني بجل ما تقدر عليه وجعلنا من المكتبة مكانا لتواعدنا خلال ثلاثة سنوات كاملة، حتى أننا تخيلنا زفافنا وسط مكتبة معينة، حيث تكون الكتب الشاهد الأساسي على عقد قراننا، غير أن الحياة علمتني ضرورة الاحتياط من صفعات الأيام.

إيماني باقتناص الفرص المناسبة قادني إلى السعي لاكتساب ود كريمة برباط أبدي مقدس، وبما أني آمنت بحرية اختياري فلدي كل

الحق في الرغبة بالزواج، لا يهم سني لأن أروع الأمنيات هي تلك التي نطلق سراحها في أرض الواقع، فما كان مني إلا أن عرضت الفكرة على والدتي قبل سنة من تخرجي، ابتسمت فتنبأت أول وهلة أنها لم تعارض الفكرة، لكن صمتها كان أجمل من أن يصدق، لذلك خالجني بعض الشك فألححت عليها كي تعرض رأيها في الأمر، صحيح أنها لم تعارض بصريح العبارة، لكن الشروط التي وضعتها في طريقي كان ترجمة لاحتجاجها بلغة أخرى.

أول ما بادرت في قوله:

- إذا سألوني عن عملك، ما عساي أقول لهم؟ ثم أضافت بعد فترة من الصمت.

- ماذا عن المسكن؟ أنت تعرف أن منزلنا ضيق لا يسعنا.. فكيف بفرد جديد؟

رغم أني درست في الجامعة الشيء الكثير من فلسفة هيجل[20] وديكارت[21] إلا أنها لم تكن بصعوبة ووطأة تلك الأسئلة، أرقني التفكير

---

[20]- جورج فيلهلم فريدريش هيغل: (1770- 1831)، واحد من أهم الفلاسفة الألمان، وأهم مؤسس للمثالية الألمانية، طور المنهج الجدلي وكان لفلسفته أثر عميق على الفلسفات المعاصرة، أهم كتبه: "فينومينولوجيا الروح"

[21]- رونيه ديكارت: (1596- 1650)، فيلسوف فرنسي أطلق عليه اسم "أب الفلسفة الحديثة"، يعتبر الشخصية الرئيسية للمذهب العقلاني وصاحب المقولة الشهيرة : "أنا أفكر إذا أن موجود"، أبرز مؤلفاته: كتاب تأملات في الفلسفة الأولى 1641م.

في الأمر مدة طويلة، خاصة أني اعتقدت جازما أن كريمة فرصة لا تعوض، وفي قاموسي عنى لي ذلك القتال إلى آخر رمق، لم يكن الاستسلام ضمن خططي، وما حسَّن وضعي أنها تصغرني بسنة.. أي أن حجة إتمام دراستها ستبعد عنها جل الخطاب فأكتسب بذلك مهلة عام كامل.

وحين كنت المتفوق الأول في دراستي خلال سنة التخرج، كان كلي يقين أن مساري الدراسي سيقترن بمواصلة التعليم في الماجستير، ولن يكون امتحان الاجتياز بتلك الصعوبة، خاصة بعد تردد إشاعة مفادها أن الجامعة تعاني نقصا فادحا في عدد الأساتذة، فكانت إذن فرصة ضرب عصفورين بحجر واحد، مواصلة الطريق نحو تحقيق حلمي، ثم تحصيل وظيفة محترمة جدا، بذلك أجعل رأس أمي مرفوعا إن جرى الحديث عن الوظيفة.

وحين سألتني والدتي بعد اقتناعها بخطتي عن البيت ومقر سكني، عرضت عليها خطتي الثانية المتعلقة بالبيت، فقد سمعت في ذلك الوقت حديثا مفاده أن الحكومة اعتزمت منح السكان الكثير من السكنات في المدينة كي تساعدهم في التخلص من رعب الريف، وما علي إلا جمع الملف المطلوب وعرضه على الإدارة، فكانت حظوظي مرتفعة بنيل سكن في مدة لا تتجاوز السنتين على أقصى تقدير وذلك حسب قول الوالي.

نالت خطتي إعجاب أفراد أسرتي، وأكثر من ذلك.. علت في البيت زغردة بهيجة، إلا أبي فقد عبس ولم يبد رأيا في الموضوع كأنه يتوجس خيفة مما يحمله المستقبل.

لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة، فقد اكتشفت في وثائق الملف أنه يشترط على الراغب في نيل سكن حكومي أن يكون متزوجا، فأخبروني بربكم أي مشكلة فلسفية أعظم من هذه، أهل حبيبتك يطالبونك بسكن مستقل، والحكومة تطالبك بالزواج أولا كي تمنحك سكنا، وبين الأولى والثانية مات الكثير من الفلاسفة، لكني مع ذلك لم أتوقف عن البحث والسعي لإيجاد حل مناسب، فقررت أن أستأجر بيتا ريثما أتم عقد القران وأدفع ملفي، خاصة أن دخلي من التدريس الجامعي سيكون كافيا للعناية بجل هذه التفاصيل، ثم مرة أخرى يصفعني الواقع بكل سخرية حين قرأت في أحد الشروط وجوب أن لا يتجاوز الدخل الشهري لطالب السكن نصف ما سأجنيه حين أرتقي لرتبة أستاذ جامعي.

كاد اليأس يستقر في قلبي خلال تلك الأيام، لكني تعودت على العيش انطلاقا من المثل الشعبي القائل: "السامط يغلب لقبيح"[22]، لذلك ابتكرت خطة كفيلة بتحقيق جل ما أبغي غير أنها تتطلب سرية

---

[22]- مثل شعبي بمنعى: الإنسان الملحاح يتغلب على الإنسان الذي يعطل المصالح.

كاملة، ولم يكن بإمكاني أن أفشيها لأحد سوى كريمة لثقتي في دعمها الكامل.

في الأشهر الأولى من آخر سنة دراسية سنة 1995-1996، اجتمعت مع كريمة، جرى بيننا حديث حمل الكثير من الشوق والحب، تناولنا فيه كل ما فاتنا من ذكريات، وخلال أول لقاء بعد طول غياب قررت أن أقترح عليها الموضوع كي نعالجه من كل جوانبه، قصصت عليها بالتفصيل الممل ما جرى بيني وبين أمي من حديث، حتى انتهينا إلى المشكلة الأساسية في كوني لا أستطيع نيل سكن دون عقد زواج، فأكدت لي أن من سابع المستحيلات أن يقبل والدها إمضاء العقد دون ضمان سكن مستقل لابنته، وحين كنت أتوقع تماما تلك الإجابة عرضت عليها خطتي البديلة.

مجموع زملاء قسمي في السنة الأخيرة لم يتجاوز العشرة ما بين الإناث والذكور، فالكل كان متخوفا من شيء اسمه الفلسفة، لكن فتاة اسمها شريفة لم تكن لتشعر بشيء من ذلك، لأنها كانت كل شيء آخر إلا طالبة فلسفة، لم تكن تحضر الدروس ولا المحاضرات إلا في المرات التي يحين فيها دورها من أجل عرض بحث ما أو خلال زمن الامتحانات، ودائما ما كانت تعاني قبل أن تُعرض النتائج، غير أنها بلغت السنة الأخيرة دون أي تكرار، يقال أنها عاشت وحيدة في الإقامة الجامعية وامتهنت البغاء، كما أنها عُرفت في أوساط الجامعة باسم "الشريفة Impossible"، ذلك أنها تفعل المستحيل مقابل ثمن معين، فقد انتشرت شائعة مفادها أن أحد الأساتذة

عرض عليها مبلغا كبيرا لتثير الشبهات حول عميد الكلية، ونجحت في ذلك ليتم خفض رتبته ويحتل ذلك الأستاذ المنصب بدلا عنه.

كانت الخطة تقتضي إقناع الشريفة بإمضاء عقد زواج لمدة محددة، وفي نفس الوقت وهو الأمر الأكثر صعوبة إقناع كريمة بضرورة تنفيذها إن هي أرادت حياة مشتركة، فاستعملت في حديثي معها كل مهارة في الإقناع، وأن الطريق يحتم على الفلاسفة اختيار الخيار الأصعب الذي لا مفر منه، ثم ذكرتها كيف أن جان جاك روسو[23] استغنى عن أبنائه لصالح ملجئ لليتامى، وكيف تخلى كيركيغارد[24] عن حبيبته التي عشقها لعشر سنوات حين تبدت له الأسئلة الوجودية وصار وجودها عائقا في حياته، فالعيش بمبدأ أساسي حتم عليهم سلوك سبل عويصة، وفي حالتي الشخصية روح مبدئي كانت مصورة في كريمة، كما أني لم أنس أيضا ذكر عبث الفلاسفة غير المتزوجين علّ ذلك يثير فيها شيئا من الغيرة وترضخ للخطة التي تتطلب تضحية من أجل هدف أسمى.

---

[23]- **جان جاك روسو:** (1712- 1778)، فيلسوف فرنسي من فلاسفة عصر التنوير، ساهمت فسلفته في قيم الثورة الفرنسية، أهم كتبه السياسية: "العقد الاجتماعي".

[24]- **سورين كيركيغارد:** (1813- 1855)، فيلسوف دنماركي وجودي، ينتسب لما يسمى بالوجودية المؤمنة، في مقابل الوجودية الملحدة بزعامة جان بول سارتر.

كان لي ما ابتغيت حين وفقت في إقناعها، فأمضيت عقد الزواج وصرت أول فيلسوف متزوج دون زوجة، ثم اتفقت مع الشريفة على أن مدة العقد أربعة أشهر فقط، لم تعارض ذلك بعد أن دفعت ثمن أتعابها.

بعد شهر من ذلك الوقت، وضعت أول ملف لطلب السكن الحكومي، وخِلت يومها أن خطتي تمشي على قدم وساق في أرض معبدة.

9

بكثير من الضيق البادي من نبرة صوته تمتم مصطفى.

- أما كان عليكم انتظار شروق الشمس ثم الخروج بقدرة قادر، إنها الخامسة صباحا، ما بالكما!

لم يرد عليه أي منهما، فقد أحسا بخطئهما بعد فوات الأوان، الجو كان باردا جدا، والمقهى يكاد يمتلئ عن آخره، كل رواده خلال تلك الساعة انتظروا بفارغ الصبر نشر قوائم السكن العمومي، وقد اعتادت الحكومة نشرها قبل شروق الشمس تفاديا للاصطدامات مع السكان.

سعيد هو الوحيد المعني بهذا التوزيع الجديد، فمصطفى مقتنع بضرورة بقائه في بيت والده، أما خالد فقد كان يسكن منزله الخاص، بناه في مدة عشر سنوات ولا زال الدين يلاحقه ليل نهار، عمله كحلاق لم ينجه كل النجاة.

- أعتذر يا صديقاي، فلم يكن علي إزعاجكما في هذا الوقت المبكر من هذا الشهر القارص.

قال سعيد ذلك بعد أن خالجه شيء من الحرج لطول انتظارهم، فقد مرت ساعة على جلوسهم دون أي حركة تذكر، لكن خالد طمأنه بقوله:

- لا عليك يا أخي، هذا أقل شيء يمكن أن نفعله في سبيل صداقتنا، كما أننا نبغي أن نكون أول المهنئين، سيكون لك منزل خاص، العاقبة لشيء أفضل.

وعلى نفس السياق سار مصطفى وأعاد الكلام نفسه.

كان ذلك آخر يوم في شهر يناير من سنة 2019، وكان أغرب ما في الأمر أن المقهى امتلأ لأول مرة بالنساء والرجال على حد سواء، جل المعنيين ينتظرون بفارغ الصبر داعين الله أن يرزقهم سكنا يفرج همهم، وبين أولئك كانت عجوز يبدو من خلال تجاعيد وجهها المسطرة أنها في بداية الثمانينيات، وهي المرأة التي جذبت انتباه سعيد طيلة المدة التي جلس فيها في ذلك المكان، ظل يتساءل بينه وبين نفسه عن السبب الذي دعا هذه المرأة لطلب سكن والظاهر أن الجزء الأكبر من حياتها قد انقضى، ولم يبق لها إلا سنوات معدودات بالنظر لترهل جسمها وهزل جسدها، غير أن الهم لا عمر له.

كانت تلك العجوز جالسة وحدها ترتشف شيئا من القهوة، كعادته لم يستطع سعيد تحمل الفضول الذي راود نفسه، وقرر أن يسألها عن قصتها فاتجه صوبها.

سلم عليها وصار يحدثها وقد بدا على ملامحها إرهاق شديد، ليس ذلك الإرهاق الذي يصيبنا جراء تعب جسدي، بل ذلك الذي ينخر عظامنا ويدك معاقل قلوبنا فلا ننعم بهناء وتظل حياتنا في اضطراب داخلي عقيم، وبعد أن طال حديثهما أجابته عن سؤاله بقولها:

- لا حاجة لي في هذا السكن الجديد إلا لرغبتي في ميتة كريمة، لا أعتقد أن في حياتي البقية الكافية كي أطمع في شيء أكثر من هذا.

غاص سعيد في سهو عميق بعد أن سمع قولها، أي فلسفة هذه، لم يسبق له أن قرأها في أي كتاب، هو الذي ظن أنه اقتحم كل المواضيع الفلسفية وتطرق لقراءة جل أفكار الفلاسفة، ها هو ذا يبقى حائرا فاغرا فاه في وجه حلقات الواقع البائس، كان يظن أنه أشقى الناس وأنه الوحيد الذي لم يعرف طعم السعادة بعد، غير أن حديثه القصير مع تلك العجوز خفف عنه الشيء القليل من لوعته، إلا أنه حين همَّ بالعودة إلى مكانه، اضطرب جسده وأصابته رعشة رهيبة، ذلك أن فكرة مظلمة مرت بخاطره، تخيل نفسه يسلك نفس سبيل تلك المرأة الهرمة، يا لها من فكرة ثقيلة الوزن على القلب، لن يستطيع التحمل إلى ذلك السن، لابد أنها شيخة قوية جدا حتى وصلت لذلك الرقم من عدد السنوات ولا زالت رغبتها في نهاية كريمة مسيطرة على عقلها، لو كان في مكانها لاستسلم في منتصف الطريق، هذه هي الحياة، تضم بين جدرانها فئة من البشر عاشوا حياتهم وليس لهم غاية سوى مقاومة بطش الأيام، حتى ماتوا في سبيل تلك المقاومة.

أعاد قول المرأة المسنة على مسامع أصحابه ففتح بذلك باب الحديث عن مواضيع شتى.

قال مصطفى وقد برزت عيناه وبدا عليه غضب شديد:

- الله يرحمك يا بومدين، يا سيد الرجال، لو كنت حيا ما وجدنا مثيلات لهذه العجوز.

فما كان على خالد إلا أن يرد عليه بقوة كما اعتاد أن يفعل كلما سمع أحدهم يمدح شخصية سياسية.

- ها أنت ذا تعيدنا إلى الماضي، كل مرة يتكرر نفس المشكل، بومدين، منتخب الثمانينات[25]، زمن النية، حاليلوزيتش[26].. أفق يا عزيزي فالأيام لا تحن على أحد من الناس، "لي فات مات"[27] والبركة في القادم.

- أعتقد أن في كلامه وجهة نظر سديدة، فخيباتنا المستمرة في الحاضر جعلتنا نتعلق بكل ما له علاقة بالماضي، لذلك صارت حياتنا لا تطاق.

ابتهج مصطفى بعد أن أيده سعيد وأضاف عليه.

- نعم يا عزيزي خالد، العيش بطمأنينة على أطلال الماضي أفضل من واقع بائس.

---

[25]- المنتخب الوطني الجزائري لكرة القدم، المشارك في مونديال إسبانيا 1982، والذي تفوق على ألمانيا.

[26]- وحيد حالوليزيتش: لاعب كرة قدم سابق، ومدرب حاليا، من البوسنة، وكان مدربا للمنتخب الوطني الجزائري في مونديال 2014.

- تبا لكما.. لهذا السبب لم نتقدم قيد أنملة، فكل سبيل نسلكه إلا ونتعمد المشي فيه إلى الوراء.

كذلك قال خالد بعد أن نال منه الغضب، فقهقه صديقاه لثورته، حين ذلك تكلم سعيد.

- لقد قلت لكما أننا نحن إلى الماضي، لكني لم أقل أنه الحل المناسب لعلاج أزماتنا، بل العكس تماما ذلك أخطر داء نواجهه.

فثارت ثورة مصطفى حين أحس أنه محصور في ركن ضيق، وقد كان صديقاه يعلمان أن الموت أسهل عليه من الاعتراف بعدم صواب رأيه، فاكتفى بسبهما.

- "آه يا سعيد يا ولد الحرام.. درت عليا كي لحنش"[28]

فعاد الأصحاب للضحك مرة أخرى، على الأقل لوهلة من الزمن حتى حين رؤيتهم حركة قرب مقر الدائرة، حان وقت نشر اللائحة التي حملها عدد من الشرطيين، حينها كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحا.

بعد ساعة .

ارتفعت صيحات السكان عاليا، وصار المكان بؤرة للغضب، انتشرت عدوى الحنق بين المجتمعين في ذلك المكان، وبدا اكفهرار وجوههم غالبا على سحناتهم، اجتمعوا على شكل صفوف مرتبة وقاموا بالجلوس عند باب مقر الدائرة رافضين اللائحة المعلنة رفضا قاطعا.

---

[28]- مكرت بي مكر الثعبان.

لم يستغرق الأمر كثيرا حتى أحاط رجال الشرطة بالمكان غير أنهم اكتفوا بالوقوف خوفا من تصاعد التوتر، وتعالت أصوات المحتجين: " لا للمحسوبية.. لا للمعرفة.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. لن نقبل بهذا الفساد..".

كان سعيد من بين هؤلاء المحتجين، على غير ما توقع لم يكن اسمه في اللائحة، عكس أخته التي حازت سكنا واسعا رغم كونها امرأة وحيدة، تذكر كلمات أمه حين بشرته أن شقيقته ستعطيه بيتها إن حالفها الحظ غير أن ذلك لم يكن ليطفئ جمرة الغضب التي أحرقت قلبه، صار يصرخ بكل ما أوتي من قوة، أكثر من عشرين سنة والملف يترامى من مكان لآخر، ردد الشعارات المنددة بضرورة الثورة على الفساد المنتشر في المدينة، وطار الزبد من فمه بعد أن صارت الكلمات صدى لآلام عشعشة في صدره عقدا من الزمن، ولا شيء أصعب من عجزنا عن ترجمة ما بداخلنا من حرقة.

أحاط أفراد الشرطة بالمحتجين دون أن يمنعوهم من التعبير عن احتجاجاتهم، كان جل همهم أن لا يفسدوا شيئا قرب مقر الدائرة، ومع مرور الوقت زاد عدد المحتجين، التم عدد كبير من السكان حتى أولئك غير المعنيين بالأمر، وركن رجال الحماية سيارات الإسعاف جانبا تحسبا لأي طارئ، وفعلا كانت العجوز التي تمنت سكنا يضم جثتها ضما كريما أول امرأة يغمى عليها، لم تتحصل على سكن رغم كبر سنها، فحملها المسعفون سريعا صوب المستشفى، وقد بدا الجمود على جسدها، لم يكن ذلك مبشرا بأي خير ممكن.

عرفت مدينة الحاجة مَغنية فضيحة ذاك اليوم، فاللائحة صُممت خصيصا لأهالي المسؤولين من جهة، ومن جهة أخرى احتلت أسماء الأشخاص الذين يتمتعون بخدمة "المعريفة"[29] الجزء الأكبر من اللائحة، وبين الأولين والآخرين فئة قليلة من المساكين المظلومين، أما غالبية المحتجين الذين زلزلة أصواتهم ساحة المدينة ذلك اليوم فقد نالوا من قبضة الأيام عددا لا يستهان به من اللكمات، ولم يكن ذلك ليمر مرور الكرام.

أعلنت النتائج عن مفاجآت غير متوقعة، كتلك الفتاة التي لا يتجاوز سنها الاثنين وعشرين سنة، والتي كان اسمها رفقة الممنوحين في الوقت الذي ظل فيه المحتجون فاغرين أفواههم في كيفية حدوث ذلك، ثم هنالك شقيقان تحصل كل واحد منهما على سكن خاص، وقائمة العجائب أطول من أن يحتملها إنسان عاقل.

- قلت لك أن هؤلاء المسؤولين لا يجيدون شيئا، حتى التلاعب بالنتائج يعبر عن فشلهم الذريع في تنظيم الأمور على الشكل الذي يبغون، الله يرحمك يا بومدين يا سيد الرجال.

---

[29]- مصطلح شعبي يرمز إلى استعمال الوساطة غير الشرعية لتحصيل شيء ما، ولا تخلو هذه الخدمة من الرشوة، أو الاستعانة بأصحاب السلطة من قرابة أو صداقة أو منافع مشتركة.

صرخ مصطفى بذلك موجها كلامه لصاحبيه اللذان وقفا وسط المحتجين معبرين عن سخطهم من المهزلة الحاصلة، وما إن سمعه خالد حتى أجابه.

- أعرف أني لن أكون يوم القيامة في الوعي الذي يسمح لي بالتعرف على هؤلاء المسؤولين، لكن لو حصل ذلك لتصدقت بحسنة واحدة في سبيل أن أكون شاهدا على محاكمتهم، صدقاني يا صاحبي، التشفي المنبعث من قلبي في هذه الحالة أحب إلي من أي شيء آخر.

ثم أضاف سعيد على قولهما بصوت بحاح جراء الصراخ المتواصل.

- أربع وعشرون سنة ذهبت هباء منثورا، كل ما فعلته خلال السنين الماضية هو السعي لتحقيق حلمي في كوني فيلسوفا، أي فيلسوف أحمق سأكون إن لم أستطع تحصيل سكن خاص.. لا وألف لا.. لن نصمت هذه المرة أبدا.

على العكس تماما من المشاعر المفعمة بنار الغضب، كان بيت سعيد قبلة للتهاني بعد أن ارتجت جدرانه على صدى زغاريد المهنئين، سعدت الأسرة بتحصيلها سكنا باسم رباب، ولم يكن هنالك أحد بسعادة الأم سعدية، أحست بحجم بهجة لا قبل لها باحتمالها فانفجرت أعينها بالبكاء فرحا باستقلال ابنها.

أما رباب فقد بانت على وجهها بشاشة أخذت بلب أفكارها، لكن شعورا بالتوتر راودها فجعل كلامها متلعثما كأن في صدرها سرا لا يطاق احتماله، لذلك انسحبت صوب غرفتها وأغلقت بابها بعد أن انسحب المهنئون.

- لا يرد على هاتفه، إنها المرة الخامسة التي أتصل به فيها.

هذا ما قالته سعدية لزوجها وابنتها هند حين كانوا جالسين حول طاولة الفطور، طمأنها زوجها بأن الأمر لا يدعو للقلق في الوقت الذي اكتفت فيه هند بهز رأسها علامة على تأييد رأي والدها، أما من الجانب الآخر، فلم يكن سعيد في المزاج الذي يسمح له بالتكلم مع أحد من أفراد أسرته، احتدم الموقف، وحدث شيء من التصعيد في الأحداث أدى إلى اعتقال عدد من الرجال الذين حاولوا الدخول إلى مكتب رئيس الدائرة، وقد اتسعت دائرة المحتجين لتشمل الشارع الرئيسي في المدينة فيغلق في وجه السيارات، كما اتجه عدد من المتظاهرين صوب مدخل المدينة ليتم غلقه تماما تعبيرا عن رفضهم التام لتلك المهزلة.

خلال لحظة تأمل عميق، لاحظ سعيد أوجه أولئك المحتجين، أنصت لآهاتهم، تدبر في أقوالهم واكتشف أن الإنسان في بلاده خلق ليعاني، المعاناة هي الهواء الذي يستنشقه أمثال هؤلاء ممن لا يملكون خدمة "المعريفة"، الكلمات المنبعثة من أفواههم، الحسرة البادية على أوجههم، الدعوات النابعة من قلوبهم، والصرخات المدوية من عمق أفئدتهم، كيف يمكن للإنسان أن يقضي حياته جريا وراء حقوقه! تلك الحقوق التي صارت أحلاما عند الكثير منهم، خلال تلك اللحظة حين كان سعيد سابحا في تفكيره العميق مرت بخلده فكرة غريبة نوعا ما، تذكر أن من بين الأسئلة التي تُطرح على الميت: "شبابك.. فيما أفنيته؟"، أيصح لهؤلاء المغبونين من أمثاله أن

يجيبوا أنهم قضوا شبابهم في السعي وراء تحصيل سكن محترم! أي حياة هذه! بذلك تأكد أن الخمسة والعشرين سنة الأخيرة الماضية تندرج ضمن إشكالية فلسفية عويصة، هل أنا إنسان!

لم يعد إلى منزله حتى شارفت الشمس على الغروب، رغم ذلك لم يخل موقع الاحتجاجات من السكان، منهم من قرر المبيت في ذلك المكان من أجل أن يستأنف رفضه القاطع في اليوم الموالي، وعلى عكس ما توقع حين ظن أن بيته في تلك اللحظة سيكون بمثابة ملجئ ساكن يرد له شيئا من روحه المرحة، سمع ملاسنة حادة لم يعتد على سماعها بين جدران مسكنه، ولم يكن ليتوقع في يوم من الأيام أن يبلغ الأمر ذلك المبلغ، على الأقل ما دام والداه على قيد الحياة فهما الركيزة التي تماسكت بها تلك الأسرة الغريبة.

كان الأمر متعلقا بأخته رباب وأمه، في الوقت الذي ظل فيه أفراد الأسرة فاغرين أفواههم في المصيبة التي ألمت بهم، ولم يطل الأمر بسعيد حتى فهم الأمر بعد أن طلب من أمين أن يشرح له، فعض الفيلسوف على شفتيه وبدا كأن رأسه يغلي من شدة الحنق.

لقد علم أن أخته رباب ترفض رفضا قاطعا التنازل عن سكنها، ذلك أنها سبق وأن أعدت خططا مستقلة وقررت الزواج من أحد الشبان المتخرجين من الجامعة، وردت الأمر إلى حبها الشديد له، وبما أنه لم يستطع خطبتها بحجة عدم توفر مسكن خاص به، فقد فتح لها الحظ ذراعيه كي تهنأ برفقته، خاصة أن مشكل السكن لم يعد عائقا يذكر.

هذا الأمر الذي لم تستوعبه الأم سعدية، خاصة بعد أن منت نفسها بفرحة ابنها الأكبر، وهو أقل شيء يمكن أن تفعله رباب من أجل شقيقها ردا للجميل، ذلك أنه أفنى الشطر الكبير من حياته في رعايتهم من ماله الخاص.

حاول سعيد التدخل فيما بينهما وتخفيف حدة نزاعهما، فطلب من رباب أن تنسحب باتجاه غرفتها في الوقت الذي ظل فيه جالسا قرب والدته يطمئنها بأن الأمر لن يتوقف عند ذلك الحد، فوصف لها الاحتجاجات وحدثها عن التجمعات المقامة قرب مقر الدائرة، كما أن القاعدة تقول أن صدى صوت الشعب مسموع عبر كل البقاع، وما داموا لم يتخذوا الصمت خليلا فحقوقهم ستعود إليهم عاجلا أم آجلا، ثم أن خبر الشغب وصل إلى مسامع الوالي، وقد قدم هذا كلمة شرف بأنه سيجري التحقيقات اللازمة لمحاسبة كل المتورطين في تلك المهزلة، هذا إن لم يكن هو نفسه عضوا في العصابة.

لذلك قام سعيد بكتابة الطعن أمام ناظري أمه، فاجتازت بذلك نوبة الغضب التي مرت بها، وعاودتها الأماني من جديد، وحين لم تكن امرأة بقلب حقود فقد تغاضت عن الملاسنة الحادة التي جرت بينها وبين ابنتها، إلى أن حل موعد العشاء فاجتمعت الأسرة في صمت شديد، كان كل واحد فيهم هائما في عالمه الخاص، ولم تجرؤ رباب على رفع رأسها صوب أخيها، في الوقت الذي ظل يتجنبها قدر المستطاع، فالصمت خلال تلك الدقيقة كان أفضل سبيل يمكن سلوكه، إضافة إلى أن سعيد لم يبد اندهاشه من ردة فعل أخته،

كأنه توقع ذلك قبل حدوثه، فلطالما كانت شقيقته أنانية الأسرة التي تعشق ذاتها، وليس غريبا عليها أن ترفض التنازل عن سكنها، ومن كان ليستطيع فعل ذلك وهو يعيش بين جدران بيت ضيق عتيق، هذا ما جعله يغض الطرف عن قرارها، كما أنه كان مقتنعا أن العيب ليس فيها، بل في المسؤولين الذين صاروا يتعاملون مع البشر كأنهم عبيد لا يشتكون ولا يرفعون أصواتهم مهما أُذلوا.

في اليوم الموالي عاد سعيد إلى المقهى الذي سبق وأن جلس فيه رفقة صاحبيه، وعلى غرار المرة السابقة فقد رافقاه في محنته، لم يستطع تجنب أسئلتهم المستمرة بخصوص سكن أخته، لذلك حكى لهم ما حدث بكل تفاصيله، في الوهلة الأولى لم يصدق أي منهما ذلك التصرف الشنيع من طرف رباب، لكن بعد جلوسهما طويلا ورؤيتهما الناس يتوافدون على ساحة المدينة لبدء احتجاجات جديدة، عرفا أن الأمر قد تجاوز علاقات أسرية محمودة، المسألة في تلك اللحظة كانت متعلقة بتطليق البؤس المحلق فوق رؤوس السكان، أي واحد فيهم ما كان ليفرط في تلك الفرصة، إذ أن تحصيل سكن خاص صار أمرا نادرا مما جعل التخلي عن فرصة تحقيق ذلك شبه مستحيل ولو تعلق الأمر بأفراد أسرة واحدة، وحين لم يجد خالد ومصطفى العبارات المناسبة كي يخففا بها ضيق صديقهما، غيرا من أسلوبهما إلى سخرية ذات معاني، فالسخرية صارت الطريقة الوحيدة التي يقون بها أنفسهم من جلطة التفكير في سير الأمور بالاتجاه الصحيح.

- أتعرف من هم التعساء يا سعيد؟ إنهم أولئك الذين يعيشون في كنف حكومتين مستبدتين، حكومة البلاد وحكومة المنزل، وأنت يا صديقي قد انضممت إلى فئة التعساء عن جدارة واستحقاق.. ها ها ها.

قهقه مصطفى بعد تصريحه الساخر، ثم استأنف كلامه بعد أن لاحظ أن كلماته غيرت شيئا من الجو الخانق.

- تحكمك حكومتين يا عزيزي ولم تتزوج بعد، أخبرني عن حياتك حين تحكمك الجنرالة المستبدة، فلنتمنى أن تكون عسكرية ممشوقة القوام على الأقل فلا أتوقع نجاتك إن قادك حظك نحو خيار آخر.. ها ها ها.

ارتفعت ضحكات الأصحاب حتى سمعها كل رواد المقهى، فسُلطت عليهم نظرات ملتهبة، كأن المكان صار منبعا للغضب ولا يجوز المرح بين جدرانه، فالمتضررون كثر والبشر أخطر حين ينال منهم الأسى، حين ذلك أشعل خالد سيجارة وأطلق همهمات تعبيرا عن اشمئزازه من الوضع ثم قال مغيرا أسلوب الحديث إلى الجد.

- صار الوضع لا يطاق، لابد من طريقة لإيقاف مهازل المسؤولين ووضعهم عند حدهم، إلى متى سنظل قابعين في القاع؟

- إلى أن نغير أنفسنا.

خرج مصطفى بالتصريح الأخير، فأثار قوله انتباه سعيد لذلك عقب على قوله.

- صحيح أن التغيير الفردي واجب، لكنه في هذه المرحلة أقرب إلى فكرة مثالية، الواقع يبين أنها مستحيلة، ذلك أننا قطيع هائم منذ مدة طويلة، والراعي في خبر كان، لا هو يحرس قطيعه ولا هو أدرى بحاله، ومن طال ضياعه صعب إرشاده، فكيف بقدرته على توجيه نفسه! كما أن فكرة تغيير النفس تحتاج إلى وعي كامل، والوعي نتاج مؤسسات تعليمية كالمدارس والمساجد، وحين نفكر في الأمر نكتشف أن هذه المؤسسات تحت رعاية الحكومة، وهذه الأخيرة تسعى جاهدة كي لا نوزع جرعات الوعي فيما بيننا.

- كأنها حلقة مفرغة، ندور وندور ثم نعود إلى نفس المكان الأول، فأين الحل إذن؟

سأل مصطفى بعد أن بدا عليه التأثر من تحليل صديقه.

- الحل يكمن في الراعي، فلابد أن يكون على قدر المسؤولية، ويكون سببا في ضبط الأمور وتوجيه القطيع، حينها سنتمكن من تغيير أنفسنا بعد أن نعي من نحن كبشر قبل كل شيء.

على هذا التصريح قام الأصحاب بعد أن دفعوا ثمن مشروباتهم، ثم انضموا إلى المحتجين وعلت أصواتهم تعبيرا عن رفضهم الكامل للمهازل المستمرة.

10

لم أحتفل يوم تخرجي الذي صادف فصل الربيع من سنة 1996، أي إنسان سأكون إن فعلت ذلك والأوضاع في البلاد لم تكن تبشر بأي خير، إضافة إلى سعيي لمواصلة دراستي في الماجيستر، لذلك لم يكن للاحتفال أي معنى، كما أن بالي كان مشغولا بالتخطيط الجيد، فصل الصيف يعني العمل المتواصل لمدة ثلاثة أشهر كاملة، لا بد من جمع مبلغ مناسب لحفلة الخطوبة، فالاتفاق كان يقضي بإرسال أمي نحو بيت كريمة ما إن تعلن الجامعة عن أسماء الفائزين، حينها ستجيب ورأسها شامخ عن أسئلتهم بأن ابنها أستاذ جامعي، وحين لم أكن في صحبة جيدة مع الحظ، دفعني ذلك إلى وضع خطة بديلة ثانية، ذلك أني عرضت ملفي على جل ثانويات مدينتي، فإن لم يسعفني الحظ في امتحان الماجيستير مع أن احتمال ذلك كان ضئيلا جدا في اعتقادي، حين ذلك ألجأ لمنعطف حاسم فتقول أمي أنه أستاذ ثانوية بدل جامعي، غير ذلك كانت الأمور تمشي على نحو ممتاز، فسخت عقدي مع الشريفة في سرية تامة، واستعنت بمصطفى وخالد كشاهدين، فرغم أنهما توقعا فشل خطتي إلا أنهما ساعداني في تنظيم سير الأمور، وأقرضاني مبلغا من المال كي أستأجر سكنا يكون دافعا أساسيا في نيل رضى والد كريمة، أما عن السكن الحكومي الموعود، فعلى حسب الأخبار المتداولة حينها، موعد التسليم لم يكن بعيدا عن تاريخ خطبتي المتوقعة في أواخر أكتوبر.

مرت أشهر الصيف الثلاثة بسرعة كأنها مطاردة من طرف شبح الرهبة، صحيح أني كنت سعيدا باقتراب موعد خطبتي، لكن هلعي فاق بهجتي خاصة حين عشعشت أسئلة الريبة فوق رأسي، تمنيت لو كان الشك مثل ضرس مسوسة أقتلعها من جذورها ما إن ينبض عرق الألم في جوفها، لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه.

اشتغلت خلال ذلك الفصل مع مصطفى بمستودع النجارة الخاص به، والحق أني مدين له بتعليمي حرفة من أحب الحرف إلى قلبي، كنت أحس أن النقش على اللوح وما يتطلب من الدقة والمهارة والصبر، يشبه إلى حد كبير حياتي غير المستقرة، خاصة في الجزء المتعلق بالصبر، أي فيلسوف عالمي بحاجة إلى هذه الخصلة لأن اندهاشه يزداد اتساعا مع كبر سنه، عكس عامة البشر الذين يقل ذلك كلما زادت أعمارهم، أما في ما يتعلق بي، فأنا جزائري وهذا يعني حجما مضاعفا من تلك الميزة، لأن كل شيء قابل للتغير ما بين لحظة وأخرى، قد تكون اليوم شخصية الشعب المحببة وتطالك ألسنة المدح والتهاني، ثم في اليوم الموالي تجد نفسك ملعونا كأنك قرين الشيطان.

غير ذلك كنت سعيدا بمرافقة أعز صديق في حياتي ولم تخل أيامنا تلك الفترة من الاستمتاع خاصة حين كنا نختم يوم عملنا الشاق بالاجتماع في أحد المقاهي.

كل ذلك وقد كنت أخصص ساعتين يوميا في الصباح المبكر قبل ذهابي إلى العمل، أخصصها لمراجعة الدروس كي أتفوق في امتحان

الماجيستير، أذكر أني راجعت كتب الكثير من مفكري العرب المعاصرين، لأن الامتحان يشمل مقياس الفكر العربي المعاصر، وركزت إلى حد كبير على شخصيتين أساسيتين هما محمد أركون[30] ومحمد الجابري[31]، فحدسي كان ينبئني أن الامتحان لن يخرج عن حيزهما، لكن ذلك لم يمنعني من التطرق لمفكرين آخرين، سواء ما تعلق بمشكلات الحضارة أو الإشكاليات الكبرى في الفكر العربي المعاصر خاصة ما اشتمل على أفكار التجديد الديني ونقد العقل الإسلامي.

دخل شهر سبتمبر، فدفعني الواجب إلى عرض ملفي على ثانويات المدينة، وعلى عكس ما توقعت وجدت عدة مناصب شاغرة، هذا ما حفزني لبذل المزيد من الجهد بغية التفوق في الامتحان المرتقب، فبعد أن ضمنت سير الخطة البديلة، حتم علي ذلك التركيز على الهدف الأسمى، ستتم الخطبة باسم أستاذ جامعي ثم التزوج من حبيبة قلبي، والأفضل من ذلك كله، قطع الخطوة الأهم نحو تحقيق حلمي.

---

[30]- **محمد أركون:** (1928- 2010)، مفكر جزائري، أبرز مؤلفاته: "نقد العقل الإسلامي".

[31]- **محمد عابد الجابري**: (1935- 2010)، مفكر مغربي، أبرز مؤلفاته: "نقد العقل العربي".

توقفت عن العمل قبل أسبوعين من إجراء الامتحان، واعتزلت البشر حين أغلقت على نفسي باب غرفتي، وجهت إلي أنظار أفراد أسرتي، خاصة أبي وأمي اللذان ظلا يحرصان على تركيزي الشديد في مراجعتي، أذكر أن والدتي عملت كل جهدها كي لا يزعجني صراخ أخي الصغير، حينها كان يبلغ سنة واحدة من عمره، فخلق لي ذلك الاهتمام جوا مناسبا للتفوق بجدارة واستحقاق، إلا أن شبح الضغط النفسي ظل يتربص بي بين الفنية والأخرى، جل ذلك الاهتمام من طرف أناس يحبونني جعلني أحس بقدر المسؤولية الملقاة على كتفي، لذلك لم يكن هنالك مجال للخطأ.

حلت لحظة الحسم، الحياة تمنحنا فرصا كثيرة من أجل تغيير مسارها إلى الوجهة التي نبغي، فما علينا إلا اقتناصها الواحدة تلوى الأخرى، وتلك كانت فرصتي الحاسمة، دخلت قاعة الامتحان بثقة عالية جدا، وزاد من راحتي أن عدد الممتحنين لم يتجاوز العشرة، كما أن الجامعة عرضت منصبين رسميين، تفرست في أوجه المنافسين كي أصنفهم حسب توقعي من منافستهم إياي في الامتحان، الأوجه معروفة ولا شيء يدعو للقلق إلا شخص واحد مجهول، شاب جاء من قسنطينة كي يجرب حظه في جامعة وهران، وحين كانت الفرص مقسمة على منصبين لم أعره الكثير من الاهتمام، لا يهمني شخصه ما دام لا يشكل خطرا على حظوظي، ثم تملكني شيء من الضحك حين اكتشفت أن الشريفة من بين الممتحنين، لم أدر كيف استطاعت احتلال مرتبة في التصنيف الذي

يسمح لها باجتياز الامتحان، لكن وجودها أشعرني بشيء من الراحة، أي منافسة هذه التي تكون بين أعضائها فتاة مثلها.

قبل توزيع الأسئلة بدقائق تذكرت إحدى الذكريات الطريفة، حين عرضت الشريفة علينا بحثا عن معالم الفلسفة اليونانية، ظننت يومها أن أرسطو هو معلم سقراط، وأفلاطون هو الذي شرب السم وأنهى حياته، ثم أضافت على ذلك بقولها أنهم عاشوا في الفترة التي خرج فيها عيسى عيله السلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله.

لا أعرف بالضبط السبب الذي جعل ذاكرتي تعود إلى ذلك اليوم، وأظن أن الأمر كان مطلبا ضروريا لتعزيز نرجسيتي وإثبات تفوقي على غيري، فكيف يمكن لطالبة مثل هذه أن تتجاوزني في امتحان الماجيستير؟.

طار قلبي فرحا حين قرأت الأسئلة المتعلقة بالامتحان الأول والذي اقتصر على المفكرين الداعين إلى إعادة دراسة التراث وتنقيحه دون تأسيس قطيعة مع الماضي، ثم توضيح انعكاس ذلك على الفترة المعاصرة، لم أكن لأتوقع امتحانا أسهل من ذلك، فلم أرفع رأسي عن الورقة حتى تأكدت مرارا وتكرارا من ضبط المصطلحات والمفاهيم وعرض الإجابة الشافية في الموضوع.

أما في الامتحان الثاني، فقد عرضوا علينا نصا فلسفيا بغية ترجمته من الفرنسية إلى العربية، أذكر أن النص كان متعلقا

بالفينومينولوجيا[32]، فأنجزت المهمة في وقت قياسي دون أي منغصات، وما إن أنهيت مهمتي حتى خرجت من حجرة الامتحان وكلي يقين بتفوقي الساحق.

حين حل المساء وعدت إلى البيت، استبقت الأحداث وافترضت تفوقي بنتيجة ساحقة، علت بين جدران بيتنا زغرودة سابقة لأوانها، فحمدت الله كثيرا على توفيقه إياي وكانت صورة كريمة بين أعيني لم تفارقني لحظة واحدة، تخيلتها تزف إلي مرتدية الفستان الأبيض الخلاب، غير أن الأحلام أحيانا تكون أجمل من أن تصدق.

بعد أسبوع من ذلك ظهرت نتائج الامتحان، قرأت لائحة الفائزين ودار رأسي دورة حول المجرة كلها، في لحظة قصيرة ارتفع ضغطي وثارت حفيظتي بعد أن ظل الزبد يطير من فمي الذي أعلن الحرب على الجامعة وحاشيتها بالسب والشتم والوعيد، عادة ما نغض الطرف عن مهازل كثيرة كأن يتجاوزك أحدهم في طابور شراء الخبز، لكن في قلب كل واحد فينا عملاق حانق لا يحتمل مهزلة يصر صاحبها على البصق في أوجهنا بطريقة شنعاء.

اكتشفت يومها أن اسمي لم يكن من بين الفائزين، ولا بين أسماء اللائحة الاحتياطية، حتى أني شككت في نفسي ظنا مني أني في كلية

---

[32]- **الفينومينولوجيا**: العلم الذي يدرس خبرة الوعي، خبرته بالأشياء، وخبرته بذاته.

مختلفة، ثم حين أعدت قراءة الأسماء للمرة العاشرة عاد لي شيء من الوعي، وليته لم يعد قط.

كل الصرخات والتهديدات التي أطلقتها في رواق الكلية جعلتني أبدو مجرما في نظر باقي الطلبة، ظهرت لهم كمجنون لم يتقبل خسارة امتحان ما، لكنهم لم يعوا حجم الخيبة التي دكت فؤادي، إذ أنها لحظة كادت ترميني إلى حافة الجنون، كيف لا واسم الشريفة في المرتبة الثانية! في الوقت الذي حاز ذلك الشاب المجهول على المرتبة الأولى.

جلست يومها في ركن بعد أن أمسكت رأسي مخافة انفجاره من الصداع الذي زلزله، واكتفيت بمعركة داخلية طاحنة بعد أن هدد عون الأمن بطردي إن واصلت الاحتجاج، فلبثت في مكاني قرابة ساعة كاملة لا أحرك ساكنا، ثم رفعت رأسي على حين غفلة فرأيت الشريفة، رأيتها محاطة بجمع من المباركين، يقدمون لها التهاني والتبريكات، فلم أستطع منع نفسي من سؤالها، كان لا بد لي من الاستفسار إن أردت أن أمنع عن نفسي بلية الانتحار العقلي، ثم بعد أن وقفت وحيدة توجهت نحوها سائلا دون أي مقدمات.

- كيف..! كيف تجاوزت الامتحان؟

- آه .. عزيزي سعيد.. وجهك محمر كأنك على وشك الانفجار.. لا يوجد سبب معين، تجاوزته لأني راجعت جيدا.

- سأعيد سؤالي مرة ثانية.. ولتكن الأخيرة.. كيف تمكنت من النجاح؟

في تلك اللحظة، علت ابتسامة ساخرة قسمات وجهها، وقالت بلهجة فيها الكثير من الاستفزاز.

- هل تعرف الفرق بين الأدب وقلة الأدب؟

-...!

- لا عليك.. سأجيب عنك.. أنت يا عزيزي لك من الزاد المعرفي ما يمكنك من اجتياز هذا الامتحان بسهولة، أما أنا فليس لدي من ذلك شيء، لكني عوضت نقصي بفتنة الأرداف وسحر الكواعب وسم الكلام المعسول، ثم إن القاعدة تقول: في قانون الغاب القوي يأكل الضعيف، أما نص قانوني فمفاده: قلة الأدب تسحق الأدب.

قالت ذلك وانسحبت مقهقهة فتأملتها من أخمص قدميها إلى أعلى رأسها كي أستوعب الدرس الذي لقنتني إياه، وحين ذلك قلت: "تبا.. كيت لي جات فيه"[33].

رغم السنوات التي قضيتها في العلم والمعرفة، كان ذلك الدرس الأكثر أهمية في حياتي.

أرجعني كلامها إلى واقعي المشؤوم، فتغيرت ملامح أفراد أسرتي من البشاشة إلى العبوس الذي أصابني بخيبة أكثر من نتيجة الامتحان، وحدهما صديقاي اللذان سخرا مني وضحكا علي حتى بانت نواجدهما، ظلا يخبراني مرارا وتكرارا أن الشريفة لقنتني درسا لا

---

[33]- **"كِيَتْ لي جات فيه"**: مثل شعبي بمعنى: يا لسوء حظ المتضرر من الأمر المعني بالكلام.

يستهان به في فلسفة الواقع، أما أنا فكنت أحمقا حين ركزت على ما تقوله الكتب وتناسيت دروس الحياة المكتوبة بحبر تجاربنا.

وخلال تلك الفترة اخترع خالد نكتة رافقتني في حياتي إلى غاية الساعة، حين قال:

- كان هنالك شاب اسمه سعيد، ظل مستغربا من حياته وطرح سؤالا فلسفيا مهما بقوله: "اسمي سعيد لكني لم أكن سعيدا قط "، فسمعه أحد المنتشين بتدخين الحشيش ورد عليه: " لا تحزن، أنت تقاسي بطش اللعنة ذاتها التي تعاني منها جارتنا الشريفة".

بذلك تعلمت أن آخذ الحكمة من أفواه المسطولين.

فترة عصيبة لكنها لم تكن نقطة النهاية، كان لابد من النهوض مجددا، فكريمة لا زالت في انتظاري، لذلك لم أضيع الكثير من الوقت وسعيت لتطبيق الخطة البديلة، لم تكن المناصب كما تركتها لكني وجدت منصبا واحدا في منطقة ليست بعيدة عن مدينة الحاجة مَغنية، لذلك حملت ملفي وقابلت مدير الثانوية المعنية، جرى بيني وبينه حديث حول مكتسباتي وطريقة تعاملي فراقت له أجوبتي، حتى أنه أضاف أسبوعا في عقدي مدفوع الأجر تشجيعا لي، وكما جرت العادة، لا تخلو عجلة السعادة من العراقيل، ذلك أنه قال لي.

- لا بد أنك على علم بالإجراءات المالية، لن تتلقى أجرا حتى مرور ما يقارب السنة.

- أعتذر عن سذاجتي يا سيدي، لكني لم أستوعب الأمر.. سأشغل منصب عمل أم منصب تسول؟

أحس المدير بنبرة الضيق الصادرة عني فخفف شيئا من همومي ثم وعدني بالمساعدة في جل الأمور التي تخفى عني، وحقا كان لمساندته المعنوية تلك أثر بالغ على نفسي.

بعدها بيومين فقط، وخلال عطلة الأسبوع تمت الخطبة، اتجهت رفقة أمي وأبي صوب منزل كريمة، مشيت يومها محملا بأطنان من السعادة، كدت أفقد الأمل في حياة سعيدة جراء الخيبات المتتالية التي أبت فراقي، لكن ذلك اليوم كان واحدا من أسعد أيام حياتي، خاصة حين تركت في نفس صهري أثرا سحنا، وظننت أن تلك اللحظة كانت بدرة الطمأنينة التي ستزرع في باطني وتخرج فيلسوفا سعيدا لقنته الأيام من صفعاتها الكثير.

تمت الخطبة وجرى الاتفاق على موعد الزفاف بعد أقل من سنة من ذلك اليوم، وبعد ترتيب أموري قررت التركيز في منصب العمل الجديد، أستاذ فلسفة للطور الثانوي، وقفت أمام المرآة قبل يوم من الانطلاق صوب مقر عملي فقمت بعرض حركات جسدي وترتيب أفكاري كأني في مواجهة التلاميذ، كنت متحفزا للقيام بدور الأستاذ المميز، فاشتريت بذلة أنيقة ومئزرا أبيضا وقضيت تلك الليلة في الاستعداد لكل شيء.

خرجت من المنزل في أول يوم لي كأستاذ فلسفة، تلقيت التشجيع من أفراد أسرتي قبل انطلاقي، ورغم توتر اليوم الأول إلا أن التفاؤل

غلب على مشاعري، لأركب أول سيارة أجرة في محطة المسافرين، الوجهة مدينة الغزوات، والرحلة تدوم ما بين ساعة وربع إلى ساعة وخمسة وأربعين دقيقة، سار كل شيء على ما يرام إلى غاية توقفنا في الطريق بعد تلقينا أوامرا بذلك من أحد جنود الدرك الوطني، ركن السائق السيارة جانبا فزفر محركها كأن به اختناقا حادا ومثله كادت تحتنق نفسي حين ظهر اسمي في لائحة المطلوبين للخدمة الوطنية، وبدل أن أتجه للثانوية وجدت نفسي في ثكنة عسكرية في ولاية البويرة فرع مكافحة الإرهاب، لتكون تلك أول مرة أدرك فيها أن إرادة الإنسان غير كافية لتحقيق ما يبغي من أحلام.

11

كثيرا ما نسأل الفتيات عن مواصفات فارس أحلامهن، لكن سعيد كان مشغولا بسؤال أكثر أهمية من ذلك، لقد تساءل عن الحياة، لماذا لا تعجب به؟ لماذا تصرعه كلما فكر بالنهوض مجددا؟ ومن هو فارس أحلامها، هذه المرأة الجحود التي لا تقنع بأي شيء؟

كثرة الأسئلة تعني أن التوتر قد أخذ به أيما مأخذ، خاصة بعد أن شارفت أيام الاحتجاجات على الختام، لقد كان تصريح الشرطة واضحا بهذا الصدد، للشعب الحرية المطلقة في التظاهر تعبيرا عن حقوقهم المهضومة، لكن هذا الحق مرتبط بزمن معين، ما إن تنتهي فترة الطعون فلابد من عودة المحتجين إلى مزاولة أعمالهم، ووجب فرض النظام من جديد، لذلك لم يكن هنالك اعتراض باد لهذا الاتفاق.

خلال ذلك الأسبوع، عاد شيء من الأمل إلى قلب سعيد، فقد تنازلت أخته عن سكنها الجديد لصالحه، والواقع أنها فكرت في الأمر مليا قبل الإقدام على تلك الخطوة، لم تسمح لأحد بالتدخل في قرارها بغية أن تطرد أي إحساس بالندم في المستقبل، لذلك لم تشرك أفراد أسرتها في تفكيرها، وآثرت شقيقها الذي دمعت عيناه حين بشرته بالخبر، حتى أنه بكى بعد معانقتها بكاء الثكلى، كأنها منحته القدرة على إزاحة ثقل كبير عن صدره، واحتراما لصمتها وعدم

تصريحها بالسبب الذي أدى بها إلى تغيير رغبتها اكتفى بالصمت دون طرح أي سؤال.

غير أن ذلك ما كان ليثنيه عن عزمه في المطالبة بحقه، فعسى أن تكون فرحته مضاعفة، وعلى غرار الأيام السابقة التقى بصاحبيه في المقهى المعتاد.

- لم يبق على انتهاء فترة الطعون إلا يومين، وما زلت مترددا بخصوص تلك الفتاة.

- ماذا تريد مني أن أفعل يا خالد؟

- أي شيء، المهم أن لا تكتفي بصمتك البائس، كلمها، قبلها، اختطفها.. أي شيء.. أخبرها عن حلمك الفلسفي.. ها ها ها.

- تبا لك، أنت تعلم أن حياتي في الآونة الأخيرة لا تحتمل وجود امرأة في أركانها، لابد من ترتيب الأمور، السكن ثم الزوجة.

- اللعنة عليك وعلى أفكارك، التنظيم يليق بالأمم المنظمة، أنت في الجزائر يا حبيبي، وكما قال الحكيم "خلطها تصفا"[34]، غير ذلك لن تتزوج حتى تبلغ السبعين، وأفضل احتمال حينها أنك ستصاب بنوبة قلبية بعد دخولك على عروسك مباشرة، فلا الزوجة فرحت، ولا أنت عشت حياتك.

- أففف.. حتى أنت يا مصطفى، وأنا الذي ظننتك في صفي.

---

[34]- **"خلطها تصفا"**: مثل شعبي بمعنى: اتخذ من العشوائية منهجا للعيش كي تستقيم أمورك.

- لا صف ولا هم يحزنون، نحن أصدقاؤك ولا نبغي لك إلا الخير، عش القليل من حياة فوضوية وسترى أنك أسعد الناس، الجد في هذا المكان أكبر سبب لنوبات القلب.

احتدم الحوار بين الأصحاب الثلاثة، وهو الحديث ذاته الذي جرى طيلة الأسبوع، كان الأمر متعلقا بامرأة في الأربعينيات من عمرها، غير أن جمالها خلاب جعلها تبدو كأنها بنت عشرين، كما أن لها جسدا متناسق الأركان جعلها محط الأنظار والحسد، فكانت تأتي إلى مقر الدائرة وتشارك في الاحتجاجات، وبين الفنية والأخرى ترسل نظراتها الفاتنة صوب سعيد الذي اكتفى بمبادلتها حرفة الأعين، وقد بدا الأمر جليا حين ظلت تعاكسه بكل ما منحت من جمال وسحر ابتسامتها، فلم يكن الأمر ليخفى على مصطفى وخالد اللذان جن جنونهما من رد فعل صديقهما، ومنذ ذلك اليوم وهما في محاولة مستمرة لإيقاظه من سباته، فلم يتوقفا حتى أذعن لهما.

ولا يخفى على القارئ أن سعيد كان يخنق رغبة شديدة في قلبه، ذلك أنه فكر في محادثتها أول يوم غير أن كثرة الصدمات جعلته يقاوم تلك البغية، ثم أنه لم يكن متأكدا من الهدف الذي يقوده إلى التكلم معها، حتى أنه لعن عقله الذي يحاول ضبط كل صغيرة وكبيرة، فأحيانا يكون الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة أمرا مرهقا جدا، والأسوأ أنه قد يحرمنا متعة لا حدود لها.

قرر في ذلك اليوم أن يتوجه صوبها ويكلمها بغض النظر عن النتيجة، حاول أن يعمل بنصيحة صديقه ويتخذ من الفوضوية

سبيلا لمدة قصيرة، بعدها سيقرر إن كان الأمر يستحق العناء، ومن حسن حظه أنها لم تتغيب ذلك اليوم عن واجبها في الاحتجاج ضد الفساد، فحلت على المكان كما تحل ابتسامة فصل الربيع بعد عبوس الشتاء.

كانت تسير بخطوات بطيئة لكنها مشية تعبر عن ثقة كبيرة في النفس، وزاد الجو الذي غشته أمطار خفيفة من شاعرية الموقف، أمام مقر الدائرة كانت الأصوات متعالية كالعادة: "لا للمحسوبية.." "نريد حقوقنا.." "لن نكل.. لن نمل.. نريد السكن والعمل".

تنهد سعيد كأنه تخلص من توتره ثم توجه نحوها، فعل ذلك تحت أنظار صاحبيه اللذان اكتفيا بالتعليق على كل كبيرة وصغيرة، فشاهداه يبادلها التحية باليد، ثم انسحبا صوب ركن غير مخفي عن أعين الناس لكنه أقل صخبا من ساحة الاحتجاجات.

- كنت قد فقدت الأمل في قدومك.. أي قدرة هذه التي جاءت بك.

- لم أكن أريد التسرع.

حاول سعيد أن يخرج من مأزق تردده بسرعة فأضاف على كلامه دون أن يمنحها فرصة الإجابة.

- اسمحي لي أن أقول لك أنت جميلة جدا، ولو لا حاجة في نفسي لكنت أتيتك أول يوم.

- حاجة ..! لا تقل لي أنك متزوج.

- لا.. ليس ذلك.

صمتت الفتاة لبرهة من الزمن، ثم أطالت النظر إلى أعين سعيد الذي لم يجرأ على مبادلتها النظرات، ثم قالت.

- كيف حالك يا سعيد؟

ازدرد سعيد ريقه، اضطرب جسده وظل فاغرا فاه، الفتاة تعرفه وربما كانت تتلاعب به منذ البداية في حين أنه يجهلها تماما، أحس بشبح الندم وهو يجثم على قلبه مرة أخرى، ظل يتساءل في نفسه: "فيما كنت أفكر؟"، غير أن لسانه لم يسعفه في طرح أفكاره فاكتفى بصمته قبل أن تضيف محدثته.

- ما لي أرى لون وجهك يتحول إلى أصفر فاقع؟

- ...!

- لم تتغير ملامحك كثيرا رغم أنه انقضى من الزمن الكثير.

لم يستطع سعيد مقاومة جهله، فخرج عن صمته وطرح السؤال.

- لكن.. من أنت؟

- ألهذه الدرجة نسيت منافستك؟

- ...!

- أنا سلمى سليمان.

ضرب سعيد على جبهته بيده اليمنى وعلت وجهه ابتسامة بلهاء، كيف له أن ينسى منافسته الشرسة أيام الابتدائية! أول حب في حياته، الفتاة التي شاركته حلمه، ها هو ذا يلتقي بها بعد أكثر من ثلاثين سنة.

جلسا في مكانهما مدة من الزمن، أعاد على مسامعها كل الحوادث التي مرت منذ افترقا، وكذلك فعلت هي، قصت عليه كيف أن أحلامها في أن تصير فيلسوفة اصطدمت بواقع بائس، حيث فرض عليها الزواج قبل أن تنجح في شهادة البكالوريا، زواج دام لسنتين فقط بعد أن سُجن الزوج بتهمة التزوير، والدها لم يتحمل الصدمة خاصة أنه الذي فرض عليها ذلك الارتباط فقضى نحبه جراء نوبة قلبية، وحين لم يكن لها إخوة، استغل عمها الأمر وطردها رفقة أمها من بيتهما، ومنذ ذلك الوقت وهي تقاوم بطش الحياة، ورغم الحواجز التي وقفت ضدها إلا أنها تمكنت من إنهاء دراستها الجامعية وصارت محامية متميزة، أما احتجاجها فكان بعد أن منعتها الحكومة من حقها في السكن، إذ ملت الانتقال من بيت لبيت آخر بسبب زيادة سعر التأجير مع مرور كل سنة.

كان في حديثهما الكثير من المودة، كأنهما روحان هائمتان التقتا بعد طول غياب، وفي قانون العواطف، دائما ما تسكننا الأرواح التي تشابهنا.

12

نلجأ إلى الكتابة في الكثير من الأحيان التي نرغب فيها برمي ثقل الأفكار التي تؤرقنا، وأحيانا أخرى نكتفي بالتكلم عنها بغية طردها من عقولنا، غير أن بعضها يأبى هذا أو ذلك، ليبقى أمامنا خيار الاحتفاظ بها لأنفسنا.

هذه الأخيرة بمثابة شريط الذكريات التي سجل ما مر علي خلال سنتين من الخدمة العسكرية، لو كانت السلطة بيدي لغيرت اسمها إلى التهلكة العسكرية، أقصد خلال تلك الفترة من الزمن، سنتين كاملتين من الكفاح المستمر بغية النجاح في أمر واحد: هو البقاء على قيد الحياة، خاصة أني في فترة ما، لم أكن أعلم من هم الأصدقاء ومن هم الأعداء؟ جل ما كان يمر على مسامعي اعتبرته بمثابة كلمات قاطعة حادة: إرهاب، قتل، مجزرة، انتقام، تأهب، خوف، أوامر..

أي حياة هذه! مهما كانت.. فلا أظن أني مستعد للبوح بحيثياتها.

خرجت من الثكنة العسكرية في أواخر سنة 1998، خارج أسوارها وبين شوارع المدن لم أحس بتغير كبير رغم طول المدة، أظن أن البشر ميالون نحو الأمور الجدية حين يتملكهم الخوف، وخلال تلك الفترة لم يكن أي شيء بجدية محاولة البقاء على قيد الحياة.

أما داخل بيتي فكان الأمر مغايرا لما هو موجود في الشوارع، على الأقل خلال الفترة التي عدت فيها إلى أحضان والدتي، فالنجاح في إنهاء الخدمة العسكرية كان إنجازا عظيما حين يتعلق الأمر بمرحلة

العشرية السوداء، لذلك تعاون الجيران وذبحوا خروفا فرحا بعودتي.

خلال تلك السنتين لم يؤلمني شيء قدر الألم الذي قهر صبري حين علمت أن أمي شلت بسبب حادث مرور، دهسها أحد السكارى وفر هاربا تاركا إياها مرمية في أحد شوارع المدينة، قدر الله أن تستمر حياتها غير أن الطبيب أكد لنا أن قدرتها على المشي صارت من سابع المستحيلات، إلا أن ذلك لم يغير شيئا من ابتسامها التي حافظت على تماسك أسرتنا.

والدي ظل في مهنته، يصلح أحذية البشر ويتجنب قدر الإمكان مخالطتهم، هند كانت في الرابعة عشر من عمرها، متفوقة في دراستها، وهو السن الذي بدت تظهر فيه مسامات الجمال الخلاب الساطعة من ملامح وجهها، أما رباب فكانت في الثامنة وأمين في الرابعة.

لم أشتق لشيء قدر اشتياقي للكتب الفلسفية، فالخدمة العسكرية لم تكن لتعطيني وقتا ولو ضئيلا للمطالعة رغم وجود مكتبة ثمينة في الثكنة، لذلك قررت أن أعوض ما فاتني بمضاعفة وقتي في التفلسف من جديد، لكن قبل ذلك كنت في حاجة إلى فترة راحة، على الأقل أشهر من الاستقرار في بيتي بعيدا عن البشر وضجيجهم، كنت في حاجة ماسة لإعادة الهدوء إلى نفسيتي، وذلك بالضبط ما سعيت لتنفيذه، ولم تكن خرجاتي من البيت إلا نادرا بغية لقاء مصطفى وخالد مرة أو مرتين كل شهر.

أما عن خطيبتي فلم أسأل ولم أستفسر قط، وما جدوى ذلك حين كنت متيقنا أنها فسخت الخطوبة! إن لم تفعل هي ذلك، فوالدها فعل، ولا يهم ذلك كثيرا، المهم هو الاستمرار وعدم الوقوف عند شخص ما، بمثل هذه العبارة الأخيرة كانت نفسي تراودني بعد فترة الخدمة العسكرية، لأني عرفت أن الحياة أقصر من قضائها في التحسر والندم.

استمرت راحتي قرابة الخمسة أشهر، لم أكن أفعل في أيامها شيئا سوى محاولة تنظيم حياتي من جهة والمطالعة الفلسفية من جهة أخرى، وهي الفترة التي تعرفت فيها على الكثير من فلاسفة العبث، هذا ما أرقني في فترة لاحقة من حياتي، شيء ما في تفكيري تغير بعد أحداث السنوات الأخيرة، عكس رغبتي في تحصيل وظيفة وسكن خاص، لم تكن الزوجة ضمن أولويات حياتي، على الأقل في السنتين المواليتين.

هنالك أشياء نبغي ترتيبها دون الالتفات إلى الواقع، لكن ذلك في تحققه شبه مستحيل، رغبتي كانت تشجعني على وضع حلمي في صدارة الأولويات، لكن الاضطراب لم يكن ليفارقني، ذلك الاضطراب النفسي الذي جعل نفسي ترتعش قلقا كلما تذكرت أني دون وظيفة أو سكن خاص، لا أستطيع أن أبدأ مشروعي الفلسفي وأنا غارق في مسؤوليات مثل: ارم القمامة، اشتري الخبز والحليب، وغيرها الكثير من المنغصات التي تحرم البال من راحته وسكونه، لذلك دام صراعي مع نفسي مدة طويلة، وفشلت في ضبط الأمور، ولأن المصائب لا تأتي

فرادى انضمت للائحتي لاحقا مشكلة أخرى، فعادت فكرة الزوجة للظهور وهذه المرة تحت ضغط شديد.

خلصت في أواخر شهر مارس من سنة 1999 إلى الترتيب الآتي:

- تحصيل وظيفة.
- ادخار المال لشراء منزل ثم الاستقلال الفردي.
- بذل الجهد لتحقيق حلمي بعد التنعم براحة البال.
- الزواج.

ولن يكون هذا الأخير إلا مع امرأة مثقفة، تأمرني بشراء كتاب بدل كيس حليب.

في الجانب الآخر من حياة الجزائريين، كان شهر أبريل من تلك السنة موعدا لإجراء الانتخابات، وحينها قيل أنها نقطة انعطاف في تاريخ البلد والارتقاء إلى مصاف الدول العالمية، لكني كنت قد مللت مهازل المؤسسات الحكومية وسخف كل شيء متعلق بالحكومة، فبعد أن صفعتني الجامعة قررت أن أطلق أي شيء داخل هذا الحيز، كما أني اعتبرت انتخابات تلك السنة مسرحية هزلية سخيفة، هنالك راحة نفسية لا يستهان بقوتها حين نواجه الأمور بقلة اكتراث، وفعلا صدق حدسي، تزوير على الملأ، ولا أعتقد أن الله خلق أسوأ من الذين يصرون على الكذب رغم أننا وهم على علم بهرائهم، لكنهم بالرغم من ذلك مستمرون دون أي مبالاة.

أمضيت السنوات الثلاثة التالية في سعي مستمر بغية تحصيل وظيفة، أما عن السكن الحكومي الموعود، فلا زالت عبارة "سيكون

نصيبك من السنة القادمة أوفر" عبارة تكرر على مسامعي كل عام، ولا أحد يعلم أي سنة يقصدون بكلامهم، كذلك خلت حياتي من النساء في تلك الفترة، لأن جل الوظائف التي تناوبت على ممارستها لم تكن لتمنحني وقتا من أجلهن.

سبق أن وضعت ملفي في جل ثانويات المدينة، شيء ما في التعليم كان يترك في نفسي راحة كبيرة، إلا أني لم أوفق كالسابق، المناصب كانت تعد على الأصابع وفي الغالب يقتنصها الذين يتمتعون بميزة "عندي المعريفة"، هذا ما جعلني أبحث عن وظيفة في غير مجالي، في الغالب كنت أعمل عند مدراء توقفوا عن الدراسة في المرحلة الإعدادية، ومنهم مصطفى وخالد، لكن لم يكن ذلك ليزعجني إلا في لحظات عصيبة ألعن فيها تواضعي الذي رما بي تحت أقدام بعض الجهلة، خاصة حين وجدت نفسي في الكثير من المرات فريسة لطمع أرباب العمل واستغلالهم المستمر لعرق جبيني، ذلك ما منعني من الاستقرار في وظيفة محددة، فتعلمت الحلاقة، التلحيم، النجارة، الطرز والفلاحة أيضا، كل ذلك لأن فكرة سكنت عقلي ألا وهي: "كلما قل اتكالي على البشر زادت حريتي".

توالت الأعوام ولم يتغير الكثير، اللهم إلا عودة نعمة الأمن إلى البلاد بعد طول انتظار، انتظار ضاعت بين جوانحه أرواح كثيرة، منها الهائمة ومنها المقتولة أو القاتلة، وتخلص الشعب من موقعه الذي كان بين المطرقة والسندان، إذ أنه كان المتضرر الأكبر من مهزلة

المسؤولين خلال عقد من الزمن، ولا زال السؤال مطروحا إلى أن يرث الله الأرض وما عليها: ما ذنب الذين نحرت رقابهم؟

مرت تلك الأعوام الثلاثة وحلت سنة 2002، بيني وبين نفسي أقول أني تعلمت الكثير خلال تلك المدة، ولكن في مكان ما في قلبي، أحسست بندم كبير على تضييع كل ذلك الوقت، لا أعرف لماذا بالتحديد، لكنها لعنة البشر التي ترافقهم دائما، وهي ذلك الصراع الداخلي بين النقيضين في كل شيء، كأن الشقاء كتب على بني البشر، ليت آدم عليه السلام لم يأكل من تلك التفاحة، لست أدري بالضبط ما الذي جعلني أقول هذه الجملة الأخيرة، لكني أعتقد أن بائسا آخر في هذه الأرض فكر في الأمر ذاته.

منذ تخرجي من الجامعة، جل ما حاولت فعله، هو وضع حد فاصل بين أحلامي وحقوقي، لكني لم أستطع ضبط الأمور من هذه الناحية، حياتي تعرف الكثير من الاصطدامات الحتمية، كلما أرمي خطوة نحو مصير أفضل أجد في المقابل واقعا بائسا جعلني أتساءل كثيرا عن ماهيتي ككائن حي، في لحظات كثيرة شككت في كوني إنسانا، سبق وأن قال ديكارت مقولته "أنا أفكر، إذن أنا موجود" فلتحل عليه اللعنة، فقد فكرت حتى احترقت خلايا عقلي ومع ذلك لا أحس بوجودي، لا أحد يعترف بي على الأقل، إن صح قول الفيلسوف الفرنسي فما بال المسؤولين يلوون رقابهم عند رؤيتنا، ويلتفتون نحو جهات أخرى، ألا يعني ذلك أننا غير موجودين؟ ثم ما الذي يعنيه أن أتحصل على وظيفة في تعليم الفلسفة؟ في تلك اللحظة لم أكن

أدري الإجابة حقا، غير أني علمت أن أبي ينتظر بفارغ الصبر توظيفي كي يتقاعد، ضعف بصره صعّب عليه مزاولة حرفته، عنى لي ذلك أن ترتيب أولوياتي السابق في حاجة إلى إعادة ضبط.

صيف سنة 2002، أجريت حسابا لمدخراتي المالية خلال السنوات الثلاث الماضية، النتيجة التي خلصت إليها: هي أن فكرة شراء منزل محترم بوظيفة يومية فكرة تحتاج إلى عشرين سنة كاملة، بافتراض أن لا أمرض فيها ولا أتزوج، ولا يحدث أي من الأمور التي تتطلب نزيفا للأموال، كما أن العملة في تراجع رهيب، كل سنة يهبط الدينار هبوطا مدويا، فالبيت الذي سألت عنه قبل سنتين من ذلك الوقت زاد بقيمة 20%، ومدخراتي لا تصل لنصف المبلغ المطلوب، في تلك اللحظة أحسست أن المثل الشعبي القائل "راك طبل في الماء"[35] يعنيني أكثر من أي وقت آخر، فكرت في عدة حلول، منها تغيير مهنتي فأصبح لصا محترفا، أو تاجر مخدرات، أو حتى متسول، فعلى الأقل هذا الأخير له فرصة أكبر من فرصتي في حال اكتفائي بوظيفة يومية وشهرية محدودة، صدق من قال أن الوظيفة عبودية.

لكن لم يحتاج فيلسوف مثلي لسكن خاص، أليست الحرية من شروط التفلسف؟ ربما سأكتفي بتغيير مظهري إلى مجنون ممزق الثياب وأهيم في الشوارع والطرقات، ينظر إلي الآخرون بعين الشفقة

---

[35]- **"راك طبل في الماء"**: مثل شعبي بمعنى: التطبيل على الماء يعني أن جهدك لا يسمن ولا يغني من جوع.

في الوقت الذي أشفق عليهم بدوري، ألا ما أجمل الجنون، تلك فكرة خطرت على بالي غير أني كما أخبرتكم من قبل، يأبى الواقع إلا أن يصفعني، فخلفي أم دمعتها حارة، ووالد انحنى ظهره من أجل سعادتي، ثم هنالك أمر بدت أعراضه تظهر علي خلال تلك السنوات، وهو حاجتي الماسة إلى امرأة في حياتي.

انتهى صيف 2002 حاملا معه فألا حسنا، تلقيت دعوة للتدريس في ثانوية المدينة، عقد لمدة سنة، جرى بيني وبين المدير نفس الحديث السابق، عن مشكلة تأخر الأجر لمدة تقارب العام، استغربت حقا من سلوكياتنا وادعاءاتنا المستمرة، على الورق كلنا مسلمون، في الواقع لك الله يا إسلام، حين واجهني المدير بذلك الخبر، أخذني التفكير في حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: **"أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه"**، المشكلة في إمضاء ذلك العقد، أن العرق لا يجف فقط، بل إن ملامحنا تذبل كأن القحط مسها، فبعد الشهر الثالث ننسى معنى العرق من أجل الوظيفة، وفي الأخير يتم سؤالنا عن مدى قوة الوطنية القابعة في قلوبنا.

رغم ذلك، الطريق طويل ويتطلب تضحية كبيرة، هذا كان اعتقادي الذي ظل راسخا في قلبي رغم كثرة المنغصات، كما أنها فرصة مناسبة للتعريف بالفلسفة على طريقتي داخل حجرات الدرس، فعسى أن يكتبني التاريخ من الفلاسفة ويكون لي تلاميذ يحفظون ماء وجهي وتاريخي، ومن أوفى من تلميذ هام بحب معلمه، ومن منا كان

ليقرأ عن سقراط لولا أفلاطون؟ الحياة تحتاج إلى أشخاص أوفياء، وإلا فما جدوى عيشها؟

مصطفى وخالد هما أول من علم بوظيفتي الجديدة، رغم سخريتهما اللاذعة إلا أنهما فرحا بالخبر، حتى أنهما اقترحا علي حلا للاستفادة من أجري الشهري دون تأخير، فوعداني بدفع المبلغ المطلوب فيما بينهما، ويكون بمثابة دين يرد حين أتلقى أجري بعد سنة من ذلك الوقت.

أحيانا لا نحتاج في حياتنا إلى أصدقاء ذوي جاه وسلطان، ولا علماء أو مشهورين، يكفي أن يكونوا بقلب نابض وضمير حي.

كذلك كانا أول من أطلعته على المشكلة التي راودتني بداية من صيف تلك السنة، فقد لاحظت أن نفسي صارت تميل إلى رغبات جنسية لا حصر لها، رغم أن الطبيب طمأنني أن ذلك شيء طبيعي لشاب في أواخر العشرينيات، لكنه اكتفى بنصائح لا تسمن ولا تغني من جوع، نصحني بالزواج، كذلك فعل إمام مسجدنا، بعد أن ردد علي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ منكُم الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"**، وحين لم يكن الخيار الأول في متناولي، اتخذت من الصيام وسيلة تنجيني، لكن دون جدوى، كلما اهتزت نفسي أحسست بالنار تؤجج رغباتها، وفي هذا الصدد لم

يكن الفلاسفة ذا تأثير إيجابي، سارتر، روسو، راسل[36].. لم يقاوموا البته رغباتهم تلك، غير أن وضعي يختلف، فأنا مقيد بدين محدد، ومع أني لم أكن ملتزما إلا أن الوضع مختلف، فالعلاقات المتحررة ليست كممارسة الجنس مع بائعات الهوى، إضافة إلى خوفي الشديد من التقاط مرض ما، فزاد ذلك من نكبتي، وصرعني صديقاي بسخريتهما حين قال مصطفى.

- احذر أن تقع في مصيبة مع تلميذة لم تتجاوز سن البلوغ، فليست لي قدرة على زيارتك في السجون طيلة سبع سنوات.

كذلك قال خالد.

- دعك من عنادك أيها الأحمق، تمتع بحريتك قبل زواجك، فلنذهب إلى ماخور المدينة، ولتكن المرة الأولى على حسابي.

من هم أصدقاؤك إن لم يكونوا الأوغاد الذين يقترحون عليك الحلول الأسوأ من المشكلة ذاتها؟

فعادت الزوجة لتحتل صدارة الأولويات.

كلمت أمي في الأمر، طلبت منها أن تبحث لي عن زوجة مناسبة، لا وقت لدي للحب، حتى أني لم أهتم بثقافتها أو جمالها، كانت ثقتي في أمي عمياء، فلم تعارض، بدل ذلك حدثتني بلهجة غلب على نغمتها شيء من التشاؤم، فعلت ذلك بعد أن انفردت بي حين انسحب جل

---

[36]- **برتراند أرثر ويليام راسل:** (1872- 1970)، فيلسوف وعالم منطق ورياضي بريطاني.

أفراد أسرتي نحو أسرتهم، هي فوق كرسيا المتحرك وأنا واقف أمامها كصنم بائس، كانت تحمل ورقة وقلما فتوجست من الأمر ما لا يحمد عقباه.

الزوجة في عرفنا تعني قبل كل شيء خطبتها من أهلها، وخلال ذلك الاجتماع تتم مناقشة ثمن المهر، في الغالب يكون الكلام للنسوة لأنهن على دراية أكبر في الموضوع، لا.. لسن كذلك، بل لأنهن ثرثارات أكثر من اللازم، وفي ثرثرتهن سبب معاناة كل متزوج، ومتى اقتربت الأسرتين من التفاهم قيلت في الختام مقولتين خلدهما التاريخ في مدينتي: "طالبين غير الهناء"[37] و"المهر نديرو كيما يديرو الناس"[38].

لمن يجهل تقاليد مدينتي فالعبارة الأولى تعني أن قيمة الهناء تتجاوز الخمسين مليون سنتيم، وفي الثانية وهي الأخطر تعبر عن قيمة الذهب، ما هو متداول "مسيبعة"[39] يتجاوز سعرها عشرة ملايين سنتيم، و"مسكية"[40] كذلك تفوق الخمسة عشر مليونا، ويضاف

---

[37]- طالبين غير الهناء: معناه: لا يهمنا سوى نعمة الهناء.

[38]- المهر نديرو كيما يديرو الناس: معناه: فلتكن قيمة المهر كما اعتاد أهل منطقتنا، والمقصود هنا مدينة الحاجة مغنية لأن التقاليد والعادات تختلف من مكان لآخر في الجزائر.

[39]- مسيبعة: الاسم الشعبي لمهر متداول في مدينة الحاجة مغنية وهي عبارة عن 7 أساور ذهبية.

[40]- مسكية: عقد ذهبي كبير الحجم يحمل قطعة من الذهب على شكل بيضة في الغالب.

على ذلك خاتم الخطوبة ومبلغ من المال، كما تحتم علي التقاليد أن أقوم بما يسمى "الفقدة"[41]، فتبا لمثل هذه العادات والتقاليد، لو كانت امرأة لقتلتها، تصريحي الأخير كان لعنة أطلقتها في نفسي لأن حنقا مستعرا راودني حين كنت أستمع لكلام أمي.

ما أخبرتكم به كان ملخصا عن محاضرة والدتي في ذلك اليوم، وحين كنت أحتج على أحد التقاليد، ترهبني بنظراتها المتوعدة، كأن كلامي محرم في قاموس المجتمع، وتلقي علي اللوم بقولها: "أتريد أن تطالنا ألسنة الناس أبد الدهر؟"، كانت لتكون أكثر دقة لو أنها قالت ألسنة النسوة، فالرجال لا يهتمون بالتفاصيل والتعقيدات، لذلك لعنت في نفسي المتكلمات منهن، ثم إن جل مشاكل هذا الشعب سببها الخوف من أقاويل الغير، ألم يكن لواحد منهم الجرأة على قول: تبا لأقاويلهم البائسة؟

كل ذلك ولم نكن بعد قد تحدثنا عن مصاريف العرس، فكل شيء متعلق بالمأكل والمشرب، غير أن الملاعين من البشر في مدينتي ليس لهم وظيفة أخرى غير التعليق على سير الأمور، فالعرس بالدجاج المشوي كطبق رئيسي عرس ناقص، بل معرض لألسنة الانتقاد، وفي

---

[41]- الفقدة: بمعنى تفقد الخطيبة، وهي من العادات المتداولة والتي تتم ما بين فترة الخطبة والزواج، تشمل الأعياد الدينية في الغالب، حيث يزور أهل العريس الفتاة المخطوبة محملين بعدد من الهدايا غالية الثمن، وتستمر ما دامت فترة الخطوبة.

فكر أمي كل شيء مسموح إلا كلمات الناس، يعني ذلك، ذبح عدة خراف أو عجل سمين، والوليمة مقسمة على ثلاثة أيام (كانت هكذا في السابق، تغير الحال في وقتنا وصارت يوما واحدا فقط، غير أن المصاريف لم تتغير).

النتيجة هي أن زواجي يعني أن يكون في حصيلتي ما يقارب سبعين مليونا على أقل تقدير، بمعنى آخر، تجاوز تلك الفكرة في ذلك الوقت بالذات، رغم ذلك حاولت أن أقنع أمي أن الذهب غالي الثمن ووجب أن نكتفي بخاتم الخطوبة، فردت قائلة كما تقول جل نسوة مدينتي: "الذهب وسيلة لتجاوز وقت العسرة"، والغريب في الأمر أني كنت في عسر لا طاقة لي به، لكن كيف أقنع والدتي بذلك؟

أذكر يومها أن قلبي كاد ينشق من شدة الغضب، لم أفهم المغزى من تصعيب الأمور إلى تلك الدرجة، وجب أن يكون الأمر أسهل من ذلك، من المفروض أن تصير زوجا وأنت في كامل قواك الجسدية والعقلية، وليس أن تدخل القفص الذهبي وكل عضو في جسدك منهك من الجهاد في سبيل تحقيقه، أين المتعة في ذلك؟

تمردي بطرح تلك الأسئلة عن تقاليد مجتمعي لم يخرج عن دائرة أفكاري، لكني عمدت إلى مكالمة إمام حينا في الأمر عله يساعدني على أمري.

في اليوم الموالي، اتجهت صوب المسجد، صليت الظهر وانتظرت خروج المصلين كي أنفرد بالإمام، وتمكنت من ذلك، رحب بي أجمل ترحاب وأجلسني بالقرب منه، سألني عن مشكلة رغباتي الجنسية،

طأطأت رأسي فعلم أن الحلول التي اقترحها علي لم تأت بالجديد، على كل حال لم أستغرق الكثير من الوقت فهممت بقص مشكلتي الجديدة على مسامعه، أحسست أن أفكاري وخواطري راقت له، فقد ظهر لي أنه يشاركني الرفض التام لتلك التقاليد والعادات التي صارت عالة على الراغبين في الزواج، وما إن أنهيت كلامي حتى جعل يقص علي حكايات من التاريخ الإسلامي عن الرباط المقدس، ورغم أني كنت على علم بتلك القصص إلا أن احترامي له جعلني أتأدب في الاستماع إليه، وسؤال واحد في عقلي: ما محل هذه الحكايات من الواقع؟ طبعا لم أجرؤ على سؤاله، لكني توقعت أن يختم كلامه بالحديث النبوي **"أقلهن مهرا أكثرهن بركة"**، خاصة بعد أن قص علي حكاية خطبة علي بن أبي طالب لفاطمة رضي الله عنهما، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها إياه ومهرها كان درعا حربية قديمة ثمنها بخس.

"الله الله على الإسلام الصحيح، وما أحوجنا إليه". هذا ما قلته بعد سماعي لتلك القصة، لكن عاد سؤالي المرهق ليستحوذ على أفكاري، فكان لابد لي من معرفة أثر ذلك الحديث على الواقع، وكنت أسمع إشاعة في الحي مفادها أن ابنة الإمام حسناء بجمالها، فخطرت لي فكرة، لذلك قلت.

- ليس لي سوى خاتم ذهبي، أتقبل يا سيدي أن تزوجني ابنتك على سنة الله ونبيه؟

هممت بالانصراف بعد لحظات قصيرة من طرحي ذلك السؤال، ذلك أن ملامح الإمام اضطربت وارتجفت أوصاله، ووجه إلي نظرات شاخصة ملؤها الوعيد، فأحسست كأنه يريد الفتك بي، لذلك فررت دون أن يسعفني الوقت لسماع إجابته رغم أن الرفض كان ساطعا على جبهته.

13

ثلاثة سنوات متتالية، عقد عمل سنوي وتجرع رشفة من التعليم الثانوي، يقال أن البدايات دائما ما تكون جميلة، فما بالي لم أحس بجمالها، أسوأ شيء في هذه الحياة هو الخيبة التي تراودنا بعد التعلق بخيط الأمل الرفيع، أن تكون أستاذا بعقد سنوي يعني أن بطاقات الضغط عليك ستكون رهيبة جدا، وذلك أحسست به خاصة بانتقالي من مدرسة لأخرى مع بداية كل عام دراسي، والحصيلة من تلك السنوات، إفلاس مدقع، بل أكثر من ذلك أني كنت مديونا في صيف سنة 2005 لمصطفى بمبلغ مالي معتبر، لأني خسرت الكثير من المال في وسائل النقل، المسافة بين المنزل والمدرسة لم تكن لتسمح لي بالتنقل مشيا، كما أني فكرت بشراء سيارة، وأكثر من ذلك جالت في خاطري فكرة أن أضيف كلمة "سيارة" في عنوان هذه الرواية، لكن أقولها بلهجة الساخر من نفسه، مركبة متنقلة بأربع عجلات كانت حلما صعب التحقق، رغم أن العالم يطن بضجيج السيارات، حالتي هذه ربما تثير الكثير من التساؤلات، كما أني أدرك أن من يجهل موطني سيظن أن المكان قاحل لا إشارة فيه لمنابع الحياة، أو هو بلد قست الطبيعة عليه وكان في قسوتها سبب يمنع تحقيق حياة كريمة، وأنا أكتب هذه الكلمات أخجل من ذكر اسم وطني، ليس لشيء متعلق بالعار أو الخزي أو ما شابه ذلك، بل مجرد وجود متسول في هذه الأرض يعني أننا محل سخرية عالمية،

فكيف بأستاذ يحلم بكونه فيلسوفا في المستقبل لا يستطيع توفير سكن وسيارة والعيش رفقة زوجة تحت ميثاق الرباط المقدس.
ما أنا موشك على كتابته، أمر أخذ مني الكثير من الوقت، طالتني حيرة شديدة في مسألة البوح به، لكن استسلمت في الأخير لانزلاق قلمي الذي بدى لي راغبا أشد الرغبة في تفريغ حبره تضحية في سبيل فيلسوف بائس، أو ربما هو يفكر كغيره من بعض الصعاليك في بلدي الذين يمتهنون النبش في فضائح البشر.
خلال السنوات الثلاثة أحسست بثقل الواقع، أستاذ أعزب يحترق قلبه رغبة في الاتصال بأنثى محترمة، ويُدَرس من الفتيات من يخطفن لب الأفكار بجمالهن، شخص كهذا لا يستطيع التركيز على أفكار أفلاطون وديكارت وابن رشد، كل ما يدور في نفسه هو مقارعة نفسه ومحاولة التفوق في نزاله ضد أشباح الواقع، مؤسف أن تكون حقوقي المدنية أطيافا موحشة تهجم علي كل ليلة حين أستلقي على فراشي، الأصح أن أنام قرير العين، لا أفكر بشيء في اليوم الموالي إلا عنوان الكتاب النهضوي الجديد الذي أسعى لتأليفه، لكن للأسف لم يتحقق شيء من ذلك، فحين ألج باب المنزل أجد في مواجهتي لائحة من الحاجيات، يعني ذلك نزيفا حادا للأموال، وحين أخرج للمقهى مع صديقاي يتبادر إلى مسامعي حديث الناس بشأن موعد تسليم السكنات، وكالمعتاد في حياتنا البائسة، إن صرح المسؤول أن الموعد بعد سنة واحدة، فالأصح أنه سيكون بعد خمسة سنوات على أقل تقدير، لوهلة أكاد أعتقد أنهم يعيشون في عالم لا يستوي

فيه الزمن مع عالمنا، ثم أخرج من المقهى بقلب أشد ضيقا، وما إن يلقي الليل رداءه ويعانق البشر دفء السكون، تنتابني نوازع شيطانية رهيبة لا تفارقني حتى أخمد ناري الملتهبة بالعادة الثعبانية.

زاد الطين بلة حين تقاعد أبي وصرت المسؤول الأول عن أسرتي، لا أخفيكم سرا، فكرت بالهجرة غير الشرعية نحو أوروبا أكثر من مرة هروبا من أعباء واقعي، لكن هنالك شيء أقوى من رغباتنا وأكثر شدة من آلامنا، دمعة أمي، عبوس أبي، تمزق شمل أسرتي، ولكي أكون أكثر دقة، هذه الأشياء هي السبب الوحيد الذي جعلني أتحمل صفعات الحياة في هذا الوطن.

صحيح أني قاومت بشراسة جل الإغراءات التي صادفتني في حياتي، لكن نفسي زلت عن الصواب في موضع واحد، سلكت لوهلة من الزمن طريق العبث، وإن كان عبثا محتشما، ليس كالذي قرأته عن سادية جان جاك روسو، أو رغبات برتراند راسل، فاكتفيت بامرأة واحدة تكبرني بستة سنوات، مطلقة من نفس مدينتي، تقطن وحيدة وتعمل في المدرسة التي قضيت فيها سنتي الأولى كأستاذ متقاعد، لم تكن أستاذة بدورها، بل عملت في مطعم المدرسة كمساعدة للطباخة الرئيسية، ورغم بشاعة وجهها وضخامة جسمها إلا أني لم أقاوم اغراءاتها حين عرضت علي فتح بابها في أي وقت أبغي، على عكسي كانت مغرمة بي، ومع أني أخبرتها بصريح العبارة أن ما يحدث بيني وبينها لا يتعلق بالمشاعر الوجدانية، إلا أنها كانت لتقبل بأي شيء يقربني منها، بذلك دخلنا في علاقة قائمة على مسايرة نزعات

النفس الحيوانية فينا، وكأي أحمق بائس لم أستشعر ندما أكبر من ذلك الذي ظل يراودني كلما خرجت من باب منزلها، لتكون اللعنات على لساني سهما موجها لرغباتي الحقيرة، لكن الإنسان هائم في حب التغيير، لذلك مللت من تلك العلاقة بعد مرور سنة واحدة، ورغم أنها لم تيأس من رجوعي حيث ظل باب بيتها مفتوحا على الدوام، إلا أني اكتفيت بالرجوع إلى العادة الثعبانية، للأسف لم تفارقني هذه حتى قاربت الأربعين من العمر، حينها كانت نفسي أقرب إلى السآمة من كل شيء.

سنة 2006، كانت بشرى خير في حياتي، في صيف تلك السنة نجحت في مسابقة الأساتذة، مع أني لم أزل مستغربا من نجاحي! فكيف تكون أسئلة مثل: ما الذي جعلك تختار مهنة التعليم محددا لمصير المسابقة؟ لابد أن تكون إجابتي كجل المدعين، وأقول أنها خدمة شريفة تجعلني أخدم وطني وأقدم الإضافة لأبناء شعبي رغبة في مستقبل أفضل وغد مشرق، وأضيف على ذلك شطر البيت الشعري القائل **"كاد المعلم أن يكون رسولا"**، هنا يبتسم سائلي ويكتب عبارات مبهمة علامة على تفوقي رغم أن كلانا يعلم أني أكذب، بل هو كذلك كاذب حين يدعي تصديقي، لكن بعض الامتحانات في وطني يكون النجاح فيها بتبادل الكذب، الأصح أن يكون سؤالهم عن وضعي الاجتماعي، متزوج أم لا؟ مرتاح البال أم لا؟ أسكن لوحدي أم رفقة جيش من البشر؟ المفروض أن أجتاز اختبارا نفسيا كي يضمن التلاميذ أن أستاذهم سيقدم كل جهد جهيد في سبيلهم،

وبذلك نجحت، لأني كذبت، أما الصدق فكان ليكون قولي لهم: أني لم أهتم بالوطنية قط، تبا للوطن الذي جعل من حقوقي أحلاما ترفرف في السماء السابعة، ولكي أكون أكثر صراحة أخبرهم أن هدفي من التعليم هو الأجر الشهري والضمان الاجتماعي فقط، طبعا كنت قادرا على الإجابة بهذا لكن في بعض الأحيان لابد لنا من مواجهة الذئاب بالمخالب لأن الورود لن تكون إلا سببا في التهامنا.

14

أتعرفون ما الذي حدث خلال ثلاثة عشر سنة كاملة، أعني شيئا يستحق أن يُخلد بحبر قلمي هذا الذي أكتب به الآن؟ للأسف لا شيء، وكان هذا المصير منطبقا على حيوات الكثيرين غيري، لابد أنها ميزة من مزايا الحكم البوتفليقي[42]، فالروتين نفسه تكرر لسنوات عدة، حتى نسي الشعب الكثير من المفاهيم، خاصة تلك المتعلقة بالحرية، وقد صار الجميع يقول بالمثل الشعبي "المهم تخطي راسي"[43]. هي الفترة التي تساءلت فيها كثيرا عن ماهيتي، أيمكن القول أني إنسان حقا؟ إن كنت كذلك فما بال الطابعة تعيد طبع صور أيامي فتشابهت حتى ما عدت أفرق بين الأعوام، الشيء المقرف في تلك الفترة أني اعتدت سماع الكذب حتى نسيت طعم الحقيقة، وشيئا فشيئا أصابتني عدوى الملل فكانت النتيجة الأسوأ أني صرت لا مباليا، لا بما يحدث ولا بما سيحدث ولا بشيء آخر، أقضي اليوم في المدرسة، أدرس التلاميذ بنفس الوجه والملامح ذاتها، يغلب علي القنط وتسيطر على نفسي لهجة التشاؤم إلى درجة السقم، ثم أعود

---

[42]- المقصود هنا هو فترة حكم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة (1937-...)، الرئيس الثامن للجزائر المستقلة (باحتساب الرئيس المؤقت رابح بيطاط) وأطولهم حكما بعشرين سنة من 1999 إلى 2019.

[43]- المهم تخطي راسي: مثل شعبي يدل على الأنانية الفردية على حساب المصلحة العامة، إذ أن الفرد يتجنب مصائبه ولا يكترث بمصائب غيره.

في المساء إلى المنزل، إما لتصحيح أوراق الامتحانات أو التفرج على التلفزيون، من كنت أخدع حين ظننت أن مصيري كعمالقة الفلاسفة؟ كم كنت أحمقا حين ظننت ذلك، إن كانت مهمة الواقع في تلك الفترة سلب روحي فقد أتمها على أحسن وجه، لأني لم أكن سوى جثة على قيد الحياة، أو رجل آلي مضبوط على منهج محدد، وأصعب شيء حز في نفسي، أني لم أعد أجادل في أي شيء، لم يكن لي رأي محدد كما كان في فترة سابقة من حياتي، أسير كما سيروني، وأرضخ للمطالب دون جدال أو نقاش، وذلك بالضبط ما حصل حين سألتني أمي مبالغ ضخمة من أجل زفاف أختي التي تزوجت سنة 2010، وكانت في العشرين من عمرها.

الكل في حينا كان على علم بضيق حالنا، لكن في قانون النسوة تلك حجة فارغة، لذلك كن السبب في نكبتي المالية، ولابد من الإسراف والبذخ خوفا من عبارة "والناس واش يقولوا علينا"، كل ما جمعته خلال ستة سنوات من مدخرات ذهبت أدراج الرياح، ما يقارب الستين مليونا، من أجل ماذا؟ من أجل ألبسة تقليدية ترتديها أختي لمدة ساعتين على أكثر تقدير ثم تلقيها في خزانتها إلى يوم وفاتها، وفي الأخير يتساءل علماء الاجتماع عن سبب وجود نسبة أكثر من المجانين الذكور في الشوارع بملابسهم الممزقة.

"الشدة"[44]، "البلوزة"، "قرفطان"، "العنابية"، "القسنطينية"، "البدرون"، "كاراكو"،[45] "الفستان الأبيض"... للوهلة الأولى ظننتها ألغازا وجب ترتيبها، خاصة حين رأيت أمي تبتسم في وجهي، لكنها لم تكن إلا لائحة الملابس التقليدية الواجب خياطتها من أجل العروس، فأجريت الحسابات بعد أن قمت بإضافة بعض الأسعار: قاعة الحفلات، مصاريف الأكل والشراب.. ملعون أنا حين ترددت عندما سنحت لي الفرصة بالهجرة نحو أوروبا، هذا ما كنت أخاطب به نفسي بعد إتمام الحساب.

لكني كما قلت لكم، في ذلك الزمن لم أكن سوى رجل آلي منظم على حياة معينة، حتى في محاولاتي المتكررة لتوجيه أخي أمين، كنت بلا روح، طُرد من المدرسة في سن الخامسة عشر، فأعرب لي عن رغبته بالاشتغال في مهنة الحلاقة، أعنته دون إبداء رأي محدد، بعد مدة ظهر أن المهنة لم تعجبه، فقرر أن يصير نجارا، ساعدته على غرار

[44]- الشدة: لباس تقليدي أساسي في الغرب الجزائري، وهو من التراث الجزائري المنسوب إلى ولاية تلمسان، سمي الشدة، لأن وزنه يقارب 15 كغ، ترتديه العروس أثناء خروجها من بيت أوليائها إلى بيت زوجها، ولا تنزعه حتى يشاهدها عريسها، بذلك تتحمل شدة الوزن.

[45]-"البلوزة"، "قرفطان"، "العنابية"، "القسنطينية"، "البدرون"، "كاراكو": كل هذه الأسماء عبارة عن ألبسة تقليدية خاصة بالعروس، كل لباس يرمز لمنطقة معينة، تقوم بارتدائها العروسة ليلة زفافها مستعرضة جمالها أمام باقي النسوة، وتختلف كل أسرة عن أخرى في إضافة شيء أو حذف شيء آخر منها.

المرة الأولى دون نصحه، ولماذا أنصحه وقد صفعتني الأيام رغم مجهوداتي الجبارة في التفوق عليها، وطبعا لم ينجح في تلك الحرفة أو غيرها ليستقر أخيرا في مهنة الجلوس في المقاهي والتحرش بفتيات الثانوية، فهي مهنة من لا مهنة له في هذا الوطن، من لم يستطع أداء عمل بيده فليكتفي بتمتيع عينيه وإطلاق العنان للسانه.

هند فهمت الواقع فهما دقيقا، فانسحبت من مقاعد الدراسة في سن الواحد والعشرين، واكتفت بدروس المسجد بعد أن اتخذت من الصمت منهجا صارما في حياتها، وإلى حد الآن لا يدري أحد سبب ذلك.

أمي هي الوحيدة التي ظلت متفائلة بغد أفضل، لا شيء من مصاعب الدهر يخطف ابتسامتها، وأعتقد دون أي مبالغة أنها السبب في عدم إصابتي بسكتة قلبية.

مصطفى وخالد كذلك لم يتضررا بما يحمله الواقع من بؤس لا يتحمله العقلاء، ربما يعود ذلك كونهما لا يعيران الأمور الحساسة شيئا من الاهتمام، العالم في جهة وهما في جهة أخرى، عاش من عاش ومات من مات، والأيام تمضي والبلاد بقرة يحلبها اللصوص فلماذا الحزن وقتل القلب بالضيق؟ ألا لعنة الله على الاكتراث، ذلك شعارهما الذي طالما ردداه على مسامعي.

أما وظيفتي، يمكنني أن أقول بكل ما تحمل الكلمات من أسى أنها كانت السبب الأول لشقائي، المؤسف أن هذا مصير مدرسي الفلسفة في بلد لا يعرف شيئا عن ماهية الحكمة، في بداية كل سنة أدخل

بحماس لا نظير له ثم أخرج في نهايتها بوجه عابس وملامح كئيبة مترهلة كأني قضيت مئة سنة في كهف مظلم، ألج قاعة الدرس أول يوم فتطالني الأسئلة المعتادة: هل الفلسفة حرام؟ ما فائدة الفلسفة؟ كيف ستساعدني على شراء الخبز؟ ما أهمية أفلاطون في حياتي؟ وما إن أنهي الإجابة عن استفساراتهم حتى أكتشف أنهم لم يفقهوا من إجاباتي شيئا، فكان التدريس كالتدخين يقتلني بصمت حاد، أطرح الأسئلة ثم أجيب عنها، أشرح الدرس وأختم الساعة بإملاء المقالات، وحين يحين موعد البكالوريا يبغي التلاميذ أسرع حل، اقتراح دقيق لمقالة معينة، فما دامت قراءة فريديريك نيتشه لا تساهم في جني المصروف اليومي فلا بأس بتطليق الفلسفة بعد النجاح في البكالوريا.

حتى تلك النار التي كانت تضطرم في قلبي حين اكتشاف تلاعب مسؤولي المدينة بلائحة السكن ما عادت تحرقني، في كل سنة أو سنتين تعلن البلدية عن النتائج الجديدة، فأذهب لأرى اسمي غير أني أعود بنفس الخيبة، كل مرة يفور الغضب من رأسي، وأحس برغبة في ارتكاب جريمة ما، وقد حاولت أكثر من مرة أن أوقظ وعي السكان بضرورة الاحتجاج، فتجيبني فئة أنهم يخافون تكرار مسلسل التسعينات، وفئة أخرى يقولون أن الاحتجاج لن يغير من الأمر شيئا، أما المتحصلون على السكن فيقولون أني أحسدهم وأرغب في زرع الفتنة بينهم كي يحرموا من أحلامهم، كنت أحمقا خلال تلك الفترة لأني ظننت أن الكل يفكر في مصلحة الوطن قبل

كل شيء، وغبيا لدرجة أني حسبت أن عامة الناس يفرقون بين أحلامهم وحقوقهم، ثم مع مرور الوقت اكتشفت أن المسألة متعلقة بالمصالح الخاصة، إذ لا أحد منا يؤثر المصلحة العامة على مصلحته.

15

قليلون جدا أولئك الذين اعتقدوا أن الاحتجاجات ضد لائحة السكن الأخيرة ستظل قائمة إلى آخر يوم من مرحلة الطعون، وحقا استمرت إلى آخر يوم، لأنها استفاقة بعد طول سبات، هذه المرة ليست كغيرها، لأن التجربة تقول أن من التهور تحدي شخص ليس لديه ما يخسره، وكان الشعب كذلك، إذ لم يكن الفرق كبيرا بين سجين حكم عليه بالحبس عشرين سنة أواخر التسعينات، وبين شخص حر، كلاهما عانى أزمة المهازل المتكررة، وهذا ما سبب داء اللامبالاة، لكن الواقع علمنا أن الداء المصحوب بالألم الشديد يجعل المريض صارخا بكل ما أوتي من قوة، والصراخ جمرة من جمرات التوجع الممزوج بالغضب، وحين يغضب الجزائري غضب من لا طاقة له في الاحتمال، فلا شك أن الانفجار سيدوي أركان الوطن بأكمله.

تلك هي الأخبار المتداولة في مدينة مَغنية وسائر مناطق الوطن، صحيح أن شهر فبراير عرف بردا قارسا لا حدود له، لكن قلوب الجزائريين كانت أحر من الجمر فما عاد قر الجو سببا في ارتعاش الأجساد.

كانت الاحتجاجات بادرة خير لسعيد، والغريب في الأمر أنه كاد ينسى شكل ملامحه في حالة الفرح، الشيء المقرف في الصدمات المتتالية أن شبح الريبة من الأشياء الجميلة لا يفارق المصدوم قط، فبدل عيش حياته كاملة يكتفي بنصف الأشياء، نصف سعادة، نصف حب،

نصف متعة.. الأنصاف لا تفارقه أبدا، لأن نفسيته هامت في نفق الشك وما عاد نور الأمل يصلها، لذلك ظلت خطواته قصيرة دوما، لا توصله إلى المكان المحدد، ومن سخرية الحظ أن سلمى كانت تشاركه نفس التوق النفسي للأنصاف، هي كذلك ملت من الفرص المختومة بخيبة قاسية.

عرفت لقاءاتهما تسارعا في الوتيرة، لكن على عكس المرات السابقة، لم يتخذا من الحذر درعا يحميهما خيبة جديدة، لا أعرف بالضبط سبب ذلك، لكن كما هو معروف، فالإنسان كائن معقد ولن أضيع ما بقي من حياتي في محاولة فهمه، كل ما أفترضه أن الهيام جذبهما لأن النقص الكامن في فؤاديهما قد وجد كماله، فما قيمة الحب إن لم نكن أبعد كل البعد عن الكمال؟

صحيح أن سن سلمى البالغ خمسة وأربعين عاما كان يشكل عائقا في نظر المجتمع، أو كما قالت والدة سعيد "واش يقولوا الناس"، لكن الفيلسوف كان قد بلغ تلك المرحلة التي ما عاد يكترث فيها بشيء اسمه العادات والتقاليد، إذ يكفيه النظر في المرآة واسترجاع ذكريات عمره الضائعة كي يكتشف أن سبب نكباته كلها متعلق برأي البشر، لذلك اتخذ قراره النهائي بضرورة قول "تبا" قبل كل عبارة تحمل في كلماتها حكما من أحكام المجتمع البائس.

- سلمى، هي المرأة التي سأتزوجها.

هذا ما صرح به لأمه، وقبل ذلك ببضعة أيام، كان قد قص عليها كل الأحداث، وحكى لها كل شيء، من سنوات الابتدائية إلى الحلم

المشترك والتنافس الدراسي، فلم يلحظ من كلامها ما يعكر صفو مزاجه إلا حين تحدث عن سنها، فقالت.

- تبدو امرأة صالحة يا بني، لكن..

- يا أماه، احملي كلمة "لكن" هذه، اكتبيها في ورقة، وضعي الورقة في جرة من الطين، ثم املئيها وقودا واشعلي في روحها النار، تم الاختيار، هي المرأة التي سأتزوج.

أحس أن روح الشباب قد عادت إليه فجأة، تلك القوة التي تحلى بها حين كان يحسن الجدال، ويتقن فن النقاش، لابد أن سلمى قد أشعلت في نفسه تلك الجمرة الخامدة، امرأة كهذه ما كان ليفرط فيها، خصوصا أنه آمن بأن لقاءهما بعد كل تلك السنوات لم يأتي ضرب عشواء، كل شيء بمقدار، فرد على تخوفات أمه وأخته رباب بكل أسلحة الإقناع التي يملكها، وجل ما كانتا تتكلمان عنه، هو عجزها عن الإنجاب في تلك السن، كما أنها مطلقة، وخلف كل مشكلة تقومان باختلاقها، ركن محدد لمقولة "واش يقولوا علينا الناس"، فكان رده قاطعا لا جدال فيه، أما المطلقة فلا شيء يعيبها، وليس بينها وبين العذراء ما يستحق هذا الحجم من التهويل، وأما عن الإنجاب فلا راد لقضاء الله، يقول له كن فيكون، ولعله يهبني كما وهب إبراهيم عليه السلام ولدين رغم كبر سنه، وإلا فلا مانع من كفالة يتيم وربح الأجر المضاعف.

ظهر جليا من ملامح سعيد أن قراره ذلك لا مرد له ولا جدال فيه، فكان الأب أول المهنئين وبعده هند رغم صمتها، كما أن أمين شارك

أخاه رأيه، ودافع عن حريته فيما يشاء ولعن في آخر كلامه قول البشر الملاعين.

تمت الخطبة في أواخر الأسبوع الثاني من شهر فبراير، حيث تفاجأ سعيد حين اكتشف أن والدة سلمى هي نفسها المرأة العجوز التي كلمته أول يوم في المقهى، تلك التي تمنت ميتة كريمة بين أحضان سكن خاص، وكان اسمها "الزهرة"، ورغم تدهور صحتها جراء صدمة اللائحة ، إلا أن روحها سبحت عاليا بين سحاب البهجة، لم تكن لتظن أنها سترى ابنتها عروسة من جديد قبل أن ترفع روحها، وها هي ذي الدنيا تبتسم لها من جديد.

جرى اجتماع الأسرتين على أحسن ما يكون، وتم الاتفاق على مهر بسيط، قدره خاتم ذهب مع شرط أن تظل العجوز "زهرة" في رعاية ابنتها، ذلك ما قيل عامة، وبين الحبيبين اشترطت عليه أن يكون عونا لها في تحقيق حلمها في الوقت الذي تكون فيه سندا يعينه لفعل الأمر عينه، اتفقا على فتح ملف الأحلام من جديد، فمهما كان فليس للأهداف في هذه الحياة سن معين، أما عن العرس فلن يتجاوز وليمة متواضعة بين عدد قليل من الناس، ففي الأخير، إقناع البشر مهمة شبه مستحيلة، أما إقناع النفس فأقرب إلى الصواب.

أما عن السكن، فاتفقا على استئجار أحد البيوت في المدينة ريثما يتم الإعلان عن اللائحة النهائية للسكنات بعد الطعون.

خلال تلك الفترة، انتشرت في البلاد إشاعات عديدة عن انتفاضة شعبية في 22 من فبراير، صدقها البعض وكذبها البعض الآخر، لكن

سعيد وسلمى اعتبراها فألا حسنا، وقررا أن يتزوجا في ذلك التاريخ بالذات، حتى إن صح الخبر فيكون فرصة رائعة لسير العروسين في تلك المسيرة مع الجموع الحرة المطالبة بفك القيد وتكسير القفص.

***

19 فبراير 2019

الساعة: 17:00

التقى سعيد بصاحبيه مصطفى وخالد في المقهى المعتاد، اتخذ مجرى الحديث طابعا سياسيا في أغلبه، مع بعض الكلام عن التجهيزات للعرس، وحين لم يكن الزفاف بذلك التعقيد، كان التخطيط له أسهل ما يكون، فلم يتطلب ذلك إلا يومين بعد الخطبة، وصار كل شيء جاهزا، أما حديث عامة الناس فكان بين ساخر من محاولة الشعب ومشكك في صحة الخبر، أو متفائل بالنصر والنهوض ضد الفساد، وهذه الآراء الثلاثة عبرت عن أفكار الأصدقاء، فرأى سعيد أن الوقت قد حان لينهض الشعب، أما خالد فلعن الحكومة وحسم قراره بأن الشعب لن يخرج لأن الخوف يسيطر عليه، خاصة أن أفراد العصابة لا يؤمنون بشيء غير مصالحهم ولابد أن يقاوموا بالقمع، في حين أن مصطفى لم يصدق الإشاعة أصلا رغم أنه استحسن الفكرة ورغب في تلبية النداء إن حدث ذلك، فتعالت الأصوات وكثر الجدال حول الأمر، حتى أنهى اتصال هاتفي تلك الجلسة، المتصل شرطي من المدينة، اتصل بسعيد يأمره بالتوجه نحو مركز الشرطة.

لا شيء يدل على الخير من اتصال قادم من أفراد الشرطة، خاصة وأنه الأول من نوعه في كامل حياته، تبادرت إلى ذهنه الكثير من الأفكار، لا شك أن الأمر يتعلق بالاحتجاجات الأخيرة، غير ذلك لم يكن أي شيء بالأهمية التي يستدعى فيها إلى مقر الشرطة، فكر كثيرا قبل أن ينهض عن كرسيه، وأعانه صديقاه في طرح كامل الاحتمالات وعرضها على كامل أوجهها، لكن مما لا شك فيه أنه ليس بالأمر الخطر الذي يهدد حرية سعيد، هذا ما اتفق عليه خالد ومصطفى، فصديقهما بالكاد يخرج من منزل وعلاقته مع البشر تكاد تنعدم، لذلك اتجهوا صوب المكان المحدد، ولم يفترقا عنه حتى باب المقر، هنالك منعهما الشرطي من الدخول واكتفى بتوجيه سعيد نحو مكتب النقيب.

دخل الفيلسوف وجسده يرتعش خوفا، كانت ملامح الهلع بادية على وجهه المصفر، حاول السيطرة على يديه المرتجفتين لكنه لم يستطع، عادت إليه تلك الروح الريابة من كل شيء، تذكر ما حدث له سابقا، مرت كل الحوادث مرورا خاطفا في مخيلته، حتى إحساسا بالتشاؤم طاله من خطيبته، صراع نفسي شديد أزم حالته قبل قطع الرواق المؤدي إلى المكتب الرئيسي لقائد المقر، رغم قصره إلا أن كل خطوة جعلت سعيد يبغي الغوص في الأرض العميقة والاختفاء الأبدي، ظل يتمتم في قلبه داعيا الله أن يكون الأمر خيرا، حتى أنه لم يستطع سؤال الشرطي الذي كان يرافقه، وما إن فتح باب المكتب حتى فغر سعيد فاه في المنظر الذي رآه.

رأى شقيقه أمين جالسا في ركن من أركان المكتب، مطأطأ رأسه، وفي الجهة المقابلة رجل أشيب الرأس ما بين الخمسين والستين، بالقرب منه فتاة تشهق باكية بصوت مخنوق كأنها تخاف أن يسمعها أحد من الناس، وجهت النظرات إلى سعيد وعم صمت خفيف جعله في محاولة مستمرة لربط الصور مع بعضها البعض، إلى أن وقع احتمال وحيد على مخيلته لكنه أسوأ احتمال يمكن تخيله.

قطع النقيب نغمة الصمت تلك بصوته القوي بعد أن طلب من سعيد الجلوس في أحد الكراسي، على عكس المتواجدين في ذلك المكان كان النقيب محتفظا برباطة جأشه ما دل على خبرته الطويلة، فقام بعرض المسألة على مسامع سعيد الذي أخذت الدهشة بلب عقله، خلال تلك اللحظة سرقه السهو كما هي العادة حين يحاصر من قبل أشباح الواقع البائس، حتى أنه ابتسم بسخرية تركت من حوله في ذهول، تلك الابتسامة التي تزين ملامحنا حين نعيد الذاكرة إلى الوراء ثم نتعجب من ماضينا: كم كنا أغبياء! منذ صغره جبل على حب الفلسفة والفكر، تمنى أن يكون له دور فعال في تاريخها، لكن اكتفى بالبحث عنها بين الكتب والمدارس وحياة الفلاسفة السابقين، وككل مرة يضغط على نفسه بغية مضاعفة جهده تزيد الهوة بينه وبين تحقيق حلمه، ذلك أن الحل كان في متناول يديه، والحياة كانت الأستاذ المميز في تعليمه إلا أنه لم يدرك ذلك، كل ما حدث له خلال حياته عبارة عن دروس قاسية لفلسفة صارمة، صنعت منه رجلا مفكرا وحكيما على الرغم من عدم إدراكه ذلك قبل اليوم الذي

استدعي فيه إلى مكتب الشرطة، فما كان رد فعله إلا أن ابتسم، ولو كان في مكان آخر لصفق للحياة تعبيرا عن إعجابه بطريقتها المميزة في تعليمه.

أما المشكلة فكانت أن الشرطة ألقت القبض على أمين رفقة تلك الفتاة في مكان بعيد عن أعين الناس وفي وضع يحتاج إلى محاكمة خاصة، فحين أمعن سعيد النظر في وجه الفتاة قام بالتعرف عليها فورا، هي حبيبة أخيه الهائم بحبها، سبق وأن طلب يدها فأبدت موافقتها دون أي تردد غير أن والدها رفض بحجة أن الشاب عاطل عن العمل، خلال تلك اللحظة غاص سعيد في سهوه مرة أخرى، حاول تحليل رسالة الحياة هذه المرة، لن يترك الأمور تمر هكذا دون حساب، ماذا علمتني الحياة؟ ما هي الخطوة المناسبة للخروج من المأزق؟ فكر في جميع الاحتمالات، وقلب الخيارات كلها، وفي لحظة قصيرة نهض من مكانه وصار يحوم في المكتب واضعا يديه خلف ظهره مطأطأ رأسه علامة على التأمل العميق.

- سيدي النقيب، وسيدي... !

- اسمي سيد أحمد.

في تلك اللحظة رفع سعيد رأسه، وصار يقلب عينيه بين السيدين ثم استأنف قائلا:

- أخي أمين، هل تحب هذه الفتاة؟ هل لك رغبة في الزواج منها.

هز أمين رأسه دون أي تردد، وكذلك فعلت الفتاة بعد أن طُرحت عليها الأسئلة نفسها.

- إذن، قضي الأمر الذي اجتمعنا من أجله.
فصرخ والد الفتاة وبدا عليه الاهتياج.
- هل جننت..! الحب لا يشتري الخبز والحليب، كيف سيعيشان وأخوك عاطل عن العمل.
- صحيح، الحب لا يفعل ذلك، لكنه حافز كبير لضرورة التورط في متاهة الحياة والصراع مع أيامها، كنت دائما أظن أن سبب الأزمات التي أصادفها في حياتي أناس آخرون، لكن اتضح أني لم أكن مسؤولا كما ينبغي لي أن أكون، كنت سببا في غرق السفينة، ولن نصلح ثقبها ما دام كل واحد فينا يأبى التصالح مع نفسه والاعتراف بخطئه.
بدا على المجتمعين في ذلك المكتب شيء من الارتباك، كأنهم لم يفهموا المغزى من كلام سعيد، في تلك اللحظة أحس بغبطة لا نظير لها، تلك هي نقطة البداية، التفكير بطريقة مغايرة عن المألوف، أن ترى الدهشة بادية على أفواه مستمعيك، فعلم أن البداية حانت رغم تأخرها، ثم أضاف على كلامه.
- بعيدا عن الأخذ والرد، عرضي لك يا سيدي، أعدك أن أخي سيمتهن حرفة ما، يكون مسؤولا عن ابنتك كل المسؤولية المطلوبة، ولكي أكون أكثر وضوحا، سيكون له مسكن خاص به، فأنا أتنازل عن حقي من السكن لأخي، فقد قرأت مرة أن السخاء: **ليس أن تعطيني ما أنا في حاجة إليه أكثر منك، بل السخاء أن تعطيني ما تحتاج إليه أكثر**

مني[46]، هذا هو قراري النهائي رغم شدة حاجتي للمسكن الذي انتظرته أكثر من عشرين سنة، وأعتقد أنها بداية الصلح مع نفسي ووطني.
اغرورقت عينا أمين ولم يتوقف عن البكاء حتى دخل رفقة أخيه على أفراد أسرته، قصا عليهم كل ما حدث بالتفصيل الممل، ومنعهم سعيد من إلقاء أي لوم لأن ذلك سيخالف مبدأه الجديد، حينها كانت المفاجأة، نطقت هند بعد طول انتظار، فاضت أعينها بالدمع وصارت تقص الأزمة التي حرمتها نعمة الحياة كل تلك المدة، حكت لهم عن الخطأ الذي وقعت فيه بسبب شاب وعدها بالزواج، بكت حتى جفت أعينها واعترفت أنها كانت خائفة ونذرت من الصمت عقابا لها طيلة حياتها ما دامت لم تعترف، وعلى عكس المتوقع، عانقها أخوها بشدة وبكى لبكائها، حتى أنه لعن نفسه، أعماه حلمه في تغيير العالم وهو الذي يجهل أسرته ولا يدري ما اختلج في قلب أخته طيلة سنين طوال، أحس أنه كان أحمقا تماما ومغفلا كبيرا لأنه ظن أن الحلم يتحقق بالكتب بعيدا عن حلقات الأيام المتكررة ودروسها المعبرة، لذلك تيقن أن التغيير يبدأ بالتصالح مع النفس، والأهم من ذلك تفضيل المصلحة العامة على الخاصة.
تذكر سعيد قصة سبق وأن قرأها، بطلها عمر الخطاب الذي خاف على ابنته حفصة بعد أن توفي عنها زوجها، فعرضها على عثمان بن عفان فلم تكن له رغبة في الزواج خلال تلك الفترة، ثم على أبوبكر

[46]-قول لجبران خليل جبران من كتاب رمل وزبد.

فلم يرد عليه لأنه كان يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد خطبتها، فكانت زوجة لنبي الله، فقص سعيد هذه القصة على أخته، وسألها عن رأيها إن فعل الشيء ذاته مع صاحبه مصطفى، فتخوفت من افتضاح سرها وحارت ما بين الاعتراف والصمت، ورغم أنها لم تعبر عن مخاوفها إلا أن سعيد فهم الأمر وزاد على قوله قصة أخرى.

ذلك أن رجلا جاء عمر بن الخطاب يستفسر أمرا، فقد كانت له ابنة وقعت في خطأ ثم حاولت قتل نفسها، لكن الله كتب لها النجاة وحسنت توبتها، فصار يأتيها الخطاب، لذلك تساءل والدها هل يخبرهم عن سرها فكان رد عمر قويا فقال:

- **أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه، والله لئن أخبرت بشأنها أحدا لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، انكحها نكاح العفيفة المسلمة.**

ما إن أنهى سعيد كلامه حتى عانقته أخته بشدة وصارت تبكي فوق كتفه، وبكى معها أهل الدار كلهم، لكنها كانت دموع الفرح، إذ لا شيء يعادل بهجة التخلص من الأعباء الثقيلة المقيدة للنفس.

وكان له ما شاء، إذ قبل صاحبه مصطفى عرضه بسرور بالغ، وجرى الاتفاق على تنظيم زفاف جامع للأزواج الثلاثة صيف تلك السنة بدل الثاني والعشرين من فبراير.

خلال تلك الليلة، انفرد سعيد بشقيقه أمين في غرفتهما المشتركة، وقد بدا على الأخ الصغير أن له رغبة في الإفصاح عن شيء ما، فقد ظل صامتا ينظر لأخيه الأكبر منتظرا منه علامة تسمح له بالتعبير

عما يختلج صدره، وحين لم يحصل شيء من ذلك، قرر أن يفرغ ما في جعبته.

- ألن تسألني عن السبب الذي جعلني ضحية للشرطة؟

كان سعيد في تلك اللحظة يقرأ كتابا فلسفيا فلم يلتفت لشقيقه، لكنه أجابه.

- الحب.. هو ما قادك للفضيحة.

- إذن.. لست فيلسوفا كما تدعي، لست سوى رجل عادي.

أشياء كثيرة تثير انزعاج سعيد، لكن القول بأنه ليس مميزا عن باقي البشر كان من الأمور التي يبغضها بغضا شديدا، ورغم أنه أدرك أن أمين يستفزه، إلا أنه سايره.

- حسنا، حصلت على انتباهي، اشرح لي الأمر بطريقتك الخاصة.

اقترب أمين من شقيقه الأكبر، ونظر مباشرة إلى عينيه ثم صار يحدثه مستعملا إشارات يديه.

- افتح عينيك جيدا يا أخي، أتسمي الأيام التي تتداول علينا في هذه البقعة حياة؟ أعرف أني في الخامسة والعشرين، لكن بربك أخبرني، إلى متى أظل مقيدا بحبال المجتمع البائس، السكن يطالب بزواجك، والزواج يطالبك بسكن، والوظيفة لا تفي حق أي منهما فكيف باجتماعهما، مشكلتنا في هذا الوطن أن العصابة تحاول قدر الإمكان أن تبقي أقدامها فوق رقابنا، والأسوأ من ذلك أن الشعب لم يتلاحم من أجل هدف واحد، لذلك تزداد الحفرة عمقا كلما فر الشعب من واقعه المشؤوم، هذا ما جعلني أفكر جيدا قبل أن أفقد سنوات أخرى

من حياتي، وما إمساكي من قبل عناصر الشرطة إلا أمر خططت له مع حبيبتي وأحد أصدقائي الذي كانت مهمته أن يشي بي، بذلك تزوجنا الحكومة لمنع الفضيحة، أنت تعرف أننا نعايش قوما لا يهابون شيئا قدر الفضائح، وها أنذا مقبل على الزواج بها، حتى لو لم تمنحني حقك في السكن، والذي هو حق أختي بالدرجة الأولى فكانت "سمية" (اسم حبيبته) راضية بالمكوث معي في بيتنا الحقير هذا، وهنا يأتي دور الحب يا عزيزي، فعلت كل هذا لأني مقتنع أن انتظار الفرصة المناسبة (الوظيفة ثم السكن ثم الزوجة) شبه منعدمة في بلد يعتبر الإنسان أبخس ما فيه، اللهم إلا في حالتين، تجارة المخدرات والنتيجة بين كفتين إما عشرون سنة في الحبس أو حياة ثراء بضمير مضطرب، وإما تنظيم حياتي كما فعلت أنت ثم حين أفتح أعيني أكتشف أن سني قارب الخمسين وليس بين يدي إلا وظيفة بائسة، لا سكن محترم ولا زوجة محبة، والأسوأ أن طفلك المستقبلي يصاب بالحيرة حين يرغب في مناداتك، أيقول أبي أم جدي؟ اعذرني يا أخي، لكن ألعن بكل اللغات حياة كهذه، وتبا لمجتمع لا زال يحتم على الأفراد عيشها.

صحيح أن أمين لم يكن مثقفا كشقيقه، لكنه لقنه درسا في فلسفة التمرد، هذا ما جعل سعيد مضطربا تلك الليلة يتوسل النوم أن يحن على أجفانه، لكنه نام الليل إلا قليلا، وأصبح وكلمات أخيه لا تغادر طبلة أذنيه.

بعد استيقاظه أدرك أن نومه لم يعن يوما الاستلقاء في السرير وانتظار عطف الكرى كي يحن عليه، ولكنه أحس أن حياته كلها عبارة عن نوم عميق لم يستيقظ منه بعد، إلى أن حل اليوم الموعود، من طبيعة البشر أنهم يتذكرون نوعين من الأيام، الأولى تلك التي تترك بصمة من بصمات الحب في أفئدتنا، والثانية هي الأيام التي يبقى أثر صفعاتها أبد الدهر.

يوم الثلاثين من شهر ماي سنة 2019، أواخر شهر رمضان، المفروض أن تلك الأيام بمثابة نسيم لطيف يهب على النفس البشرية المؤمنة فيزيدها طمأنينة، كما أنها أيام العتق من النار، أما في حياة سعيد فقد كان ذلك التاريخ موعد إعلان لائحة المستفيدين من السكن بعد الطعون التي وضعها المحرومون قبل أشهر مضت، وقبل خروجه من بيته صباحا، اتصل بخطيبته سلمى طالبا منها الدعاء كي تقر أعينهما بسكن خاص يأويان إليه حين زواجهما المقرر بعد أسبوعين من ذلك الوقت، توجه صباحا كعادته صوب محل المواد الغذائية لشراء كيس من الحليب، ذلك أن المدينة تعرف جنونا غير مسبوق في الشهر الفضيل إذا ما تعلق الأمر بالحليب، كأن شبح الموت يراقب كل واحد لا يحُصل كيسين أو أكثر، وهذا ما يشكل أزمة سنوية متكررة، سببها المتلهفون لملء بطونهم في شهر كان من المفترض أن يخصص للعبادة وتطهير الروح من دنسها.

لم يتأخر كثيرا في قضاء حاجته، ثم توجه صوب مقر الدائرة حيث يتم إعلان المستفيدين النهائيين، أقول النهائيين لأن العادة قادتني

لذلك، لكني أعلم وأنتم تعلمون أن ما يحدث تحت الطاولة أسوأ حقيقة يمكن أن نعترف بها، فالأصح أن الكثير من الأفراد ممن تولوا زمام الأمور يضعون مرحلة غير معلنة للعامة، اسمها "القهوة"[47]، وغالبا ما تكون مبلغا من عدة ملايين يعيد لك ما تبغي إما عن حق أو غصبا.

وصل سعيد إلى المكان المحدد، فأحس بموجة من الحنق، موجة أكبر من التي رآها أول مرة، جل الواقفين هنالك غاضبون من النتيجة، أوجههم مسودة لا يحسون بشيء من حرارة ذلك اليوم، وأنساهم الشيطان أنهم يعايشون أياما مباركة من الشهر الفضيل فتصاعدت في السماء كلمات السب والشتم التي طالت المسؤولين، كل هذا ولا زال سعيد يعيد قراءة اللائحة للمرة الثالثة، أحس أنه تجاوز عدة أسماء لذلك أعام ثم أعاد ثم أعاد.. التهب جبينه فجأة بحرارة ملتهبة، وغطت قطرات العرق وجهه كاملا، حتى أحس أن نبضات قلبه تصدر صوتا غير ذلك المعروف، كأنها دف يضرب في بيت خال فيرجع الصدى للخواء الذي يهز أركانه، ارتفع ضغطه وارتعشت أوصاله ثم أعاد قراءة الأسماء للمرة الأخيرة، لا وجود لاسمه، ولا اسم زوجته المستقبلية، والأسوأ من ذلك أن الطعن شمل أخته فحرمت من بيتها

[47] - القهوة: يقصد بها في هذا الصدد "الرشوة" حيث صارت تسمى قهوة تخفيفا للأذى الذي تسبب، وفي الواقع القهوة هي نفسها الرشوة دون لف ودوران.

الذي نالته في المرة الأولى، في تلك اللحظة ترددت في ذهنه سنوات حياته كأنها شريط سينمائي في حالة التسريع، حاول الوقوف عند لحظة واحدة تستحق التأمل، فلم يتمكن من ذلك لأنه أدرك أن حياته ضاعت بين ثلاثة أمنيات مفروضة عليه غصبا عنه.

ابتعد عن الأنظار ودخل حديقة المدينة والشمس ملتهبة فوق رأسه، قرفص تحت ظل شجرة عالية، كانت عيناه جاحظتان لا تطرفان، بدا في حالة وسط بين الجنون والتعقل، ودون وعي منه صار يشرب من كيس الحليب متناسيا صيامه، فاستساغ طعمه، وأدرك لحظتها أنها أول مرة منذ صار عقله ملجأ للذكريات يشرب فيها بتلك الطريقة، فخطرت على باله فكرة مزعجة حين أحس أن الحظ لم يسعفه ليجرب الكثير من المرات الأولى، وفي لحظة سكر من همّ الدنيا، صار يفرغ الكيس على وجهه الذي تحول للون الأبيض الناصع، وكلما سقطت على وجهه قطرة من الحليب قهقه بصوت قوي أثار الجلبة من حوله، وظل على تلك الحالة زمنا لا يتحرك من مكانه، ولا يفعل شيئا سوى الضحك والتصفيق، طالته نظرات الناس واتجهت نحوه أعين الشفقة، وكان المارون من حوله يمعنون النظر إليه وتعلو قسمات أوجههم علامات الأسى ثم يقول الواحد منهم: **" الحمدُ للهِ الذي عافاني مما ابتلاكَ به، و فضَّلني على كثيرٍ ممن خلق تفضيلًا ".**

انتهت بحمد الله يوم 10 جوان 2019

الساعة: 00.01

رسالة شكر

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من لا يشكر الناس لا يشكر الله"

بما أنك أنهيت قراءة روايتي هذه، فلك مني جزيل الشكر، فلا معنى لما نكتب إن لم نجد أمثالك في هذا العالم، لذلك ككاتب أعتبر نفسي مدينا لك.

أنتظر آراءكم حول هذه الرواية القصيرة، قراءاتكم، انتقاداتكم، وحتى اقتراحاتكم، فكلي آذان صاغية، تقلبوا مني كل التحيات.

عبد الواحد هواري.

نبذة عن الكاتب:

عبد الواحد هواري، من مواليد 05 سبتمبر 1991 بمدينة الحاجة مغنية ولاية تلمسان، متحصل على شهادة ماستر 2، تخصص فلسفة إسلامية وحضارة من جامعة تلمسان.

سبق أن كتبت رواية: "في كل قبر حكاية"، والتي اختيرت ضمن القائمة الطويلة لجائزة الطاهر وطار 2018.

يمكنكم التواصل معي مباشرة عبر صفحتي في الفيسبوك:

عبد الواحد هواري- Abdelwahed Houari

حياة فيلسوف جزائري

وظيفة.. منزل.. زوجة

اسمي سعيد.. فهل أنا كذلك؟
لو طرحت هذا السؤال على تلامذتي في الثانوية لرددوا علي كما اعتادوا أن يفعلوا: "تفلسف حمار فمات جوعا"، رغم أننا لم نسمع قط أن حمارا ما في هذا الكون الشاسع مات بسبب الجوع، عكس البشر فهم عرضة لذلك.
قرأت ذات يوم أن ابن رشد ذلك الفيلسوف المبدع قال أنه لم ينقطع عن المطالعة سوى يومين من حياته، يوم زفافه ويوم وفاة والده، وعلى نفس المنوال الذي يصيب المرء بنزلة برد جراء التشاؤم الذي يحز في صدري أحيانا، قيل أن روجيه غاروديكان يقرأ كتابا كل يوم، ابن سينا درس الطب والفلسفة والمنطق وعلوم الحديث وحفظ القرآن قبل الثامنة عشر، كما قيل أن أبي حامد الغزالي كتب بمقدار ما يعادل كتابا كل شهر من سنوات حياته، في حين احتل الإسكندر الأكبر جل مناطق العالم قبل بلوغه الثالثة والثلاثين.. هذا في الوقت الذي أتقاسم فيه غرفة ضيقة رفقة أخي ذو الخمسة والعشرين سنة وسط سكن ضيق في الطابق الثالث من عمارة حقيرة.